عشت ألف عام

مذكرات عميد المسرح المصرى

يوسف وهبى

الجزء الأول

لهوايتى للتمثيل .. صدفة
تفتحت عينى على الدنيا ..
شبابا على ضفاف البوسفور ..
الريحانى وعزيز عيد والسيدة
.. غرامى العاصف مع
.. واتهامى بقتل
فى إيطاليا !

دار المعارف بمصر

عشت ألف عام!

مذكرات فنان الشعب

يوسف وهبى

الجزء الأول



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

هذه المذكرات
وكتب « السيرة الذاتية »

لايكاد يمر أسبوع إلاّ ويصدر بإحدى اللغات الأجنبية كتاب يتضمن المذكرات الشخصية أو السيرة الذاتية لأحد ذوى الأسماء اللامعة ، سواء فى مجال السياسة ، أو الأدب ، أو العلوم ، أو الفنون بمختلف فروعها ..

وقد ألف كتاب هذه المذكرات أن يرووا سيرة حياتهم وكفاحهم — فى مجال تخصصهم — بكل ما لها وما عليها .. وبالصراحة الكاملة التى هى من سمات الثقة بالنفس والاعتزاز بالماضى الطويل فى خدمة المجال الذى اشتهر فيه كاتب السيرة ، أيًّا كان هذا المجال ..

ذلك أن حياة كل شخصية عامة ، أو كل عظيم فى مجاله الخاص ، إنما هى « ملكية عامة » للجماهير العريضة ، سواء فى بلده أو فى غيره من البلاد التى قد تترجم مذكراته إلى لغاتها .. بمعنى أن من حق الجماهير على العظماء البارزين فى كافة المجالات ، أن تنتفع بخبراتهم وتجاربهم ، وتتعظ بالدروس التى تعلموها من الحياة والأيام .. كما أن من حق كل مشتغل بنفس الفرع من مجالات التخصص — سواء كان علماً أو فنًّا أو أدباً أو سياسة — وسواء أكان هذا المشتغل ناشئاً مايزال فى بداية الطريق ، أم كان قد قطع شوطا من الطريق .. من حقه أن يبدأ المسيرة أو يواصلها من حيث بلغ أو انتهى سلفه العظيم !

وقد قرأ العالم فى الأعوام الأخيرة — فى مجال الفن ، الذى نحن بصدده اليوم — مذكرات عملاق التمثيل الكوميدى فى هذا القرن « تشارلى تشابلن » (التى ترجمت

إلى جميع اللغات الحية) . كما قرأ مذكرات عملاق الغناء المسرحى والاستعراضى فى فرنسا والعالم « موريس شيفالييه » . . وأعجب القراء فى كل مكان بالصراحة التى توخاها العملاقان فى سرد أدق تفصيلات حياتهم ، بوجهيها : بفضائلها ونقائصها . . بنواحى امتيازها ونواحى قصورها ، على السواء .

ومن هذا المنطلق ترحب «دار المعارف» بأن تقدم اليوم إلى قراء العربية — فى نحو خمسة أجزاء متتالية ، هذا أولها — المذكرات الكاملة لعميد المسرح المصرى ، فنان الشعب الذى طالما أسعد بفنه الملايين — على امتداد أكثر من نصف قرن — يوسف وهبى . . الذى احتفلت المحافل الفنية فى مصر منذ أسابيع باليوبيل الذهبى لافتتاحه مسرحه المعروف « مسرح رمسيس » .

وغنىّ عن البيان أن العهدة فى مثل هذه المذكرات تكون دائماً على صاحبها وراويها ، استناداً إلى ما قد يكون دوّنه — فى حينه — فى أوراقه أو مفكراته ، من بيانات ، يكملها الاعتماد على الذاكرة فى بعض الأحيان . . ومن هنا ، فنحن ننشر مذكرات فناننا الكبير كما كتبها ، دون تدخل فى أىّ من التفصيلات أو الوقائع التى أوردها فى هذه المذكرات ، سواء عن نفسه أوعن سواه ممن تحدث عنهم أواحتكت حياته بحياتهم ، خلال المسيرة الطويلة التى استغرقها كفاحه الفنى العظيم.

والله ولى التوفيق .

دار المعارف

عشت ألف عام !

يندر أن أهنأ بسبات عميق . .

فذكريات الماضى يحلو لها أن تهاجمنى فى الليل البهيم . .

وشريطه السينمائى يعرض فى أعماق طوال الليالى . . .

فأهب من رقادى مهما كنت مرهقاً . .

وإذا تصادف وانتصر علىّ النعاس ، فعقلى الباطن لا ينام ، بل يظل متيقظاً . .

وكثيراً ما يحدث لى عندما أعتزم كتابة مسرحية ، ويستعصى على مخيلتى تنظيم أحداثها ، أن يتطفل عقلى الباطن المستيقظ ويشاركنى فى تنظيم وقائعها . .

إنه كالضيف الثقيل الذى لا تحلو له زيارتى إلا ليلا .

فأضطر إلى إضاءة (الأباجورة) المجاورة لفراشى !

فالعقل الباطن كالأرواح يهرب من الضوء الباهر . وهذه هى الوسيلة الوحيدة لطرد الضيف الثقيل . لكن ما إن أفيق من سباتى حتى تتراقص أمامى أشباح الماضى وتتدافع آلاف الذكريات فى شريط سينمائى لا أول له ولا آخر . . وأستعرض السنين ، وتتزاحم الصور والشخصيات والأحداث التى مرت فى حياتى . . وألهث فى تتبعها ويعترينى الإعياء من هذا الاستعراض الإجبارى وأصرخ بصوت عال :

ــ لا لا . مستحيل ! !

هل كل ما فى هذا الاستعراض حقيقة أو محض خيال ؟

إنها خيالات ووقائع لا تقف عند حصر .

لقد صدق طبيب الأعصاب الشهير فى مدينة جنيف عندما لجأت إلى مصحته منذ سنوات للعلاج بعد حادث مفجع وقع لى وكاد يطيح بعقلى . قال :

ــ لقد عشت ألف عام !

وحين يطلع علىّ الفجر وأيأس من الخلاص من ذكرياتى لا أجد مفرًّا من ابتلاع حفنة من الأقراص المنومة لتصرعنى . .

وهكذا أتحاشى الجنون !

ذات ليلة ــ منذ بضعة أشهر ــ سمعت دويًّا فى أذنى . . ثم اهتز سريرى ، ففتحت عينى وأنا بين السبات واليقظة . . فلمحت على أشعة القمر التى تتسرب من نافذة غرفة نومى شبحاً . .

وعندما دققت النظر بدا لى هذا الشبح كصورة طبق الأصل منى . . فارتجفت . . وهمهمت :

ــ من أنت !

ــ أنا حاضرك .

ــ حاضرى ؟ ! وماذا تريد ؟

ــ جئت لأعاتبك على كسلك وإهمالك فى تسجيل ماضيك . .

ــ ماضىّ ؟

ــ نعم . ماضيك . .

ــ أنت محق . كثيراً ما أمسكت القلم وأنا معتزم أن أكشف عن ماضىّ الستار . ومراراً ملأت عنه صفحات . وفى كل مرة أتوقف ، بل أمزّق ما دونت ، لأن تاريخ

حياتى يحتاج إلى كل وقتى . . والتفكير فيه يضنينى ويهد كيانى .

ــ سألازمك من الآن ولن أدعك حتى تنتهى منها .

ــ إنها مسئولية خطيرة . . وأسرار طواها الزمن ويشوبها عدم الاستقرار . . إنها مسيرة طويلة وعمر عشته طولا وعرضاً . . وكثيراً ما أسأل نفسى . . كيف صمدت بمفردى وبدون عون من أى مخلوق على اجتياز الصعاب التى مرت بى ؟

عشرات السنين عشتها بين مد وجزر . .

فى قصور فاخرة ، وفى غرفة على السطح يشاركنى فيها الدجاج . .

رأس مال ضخم ورثته عن أبى وأضعته . .

ثم استرددته . . ثم فقدته . .

دوامة لا تهدأ . .

فقر وغنى . .

شظف وترف . .

ظلام وبهرة أضواء . .

قامرت . . وربحت . . وخسرت . .

انتصرت وانهزمت ، ولكننى لم أسلم سلاحى ولم أخضع للأقدار . .

ولم أغتر بالثراء . .

ولم أجزع من الإفلاس العلنى وملاحقة « الديانة » . .

أعاصير وزوابع . . وحروب عوان شهرتها على الرجعية والحقد . .

مغامرات مع الجنس اللطيف تفوق حد الخيال . .

راغبات فى خلق علاقة مع ذوى الشهرة . .

وفضوليات متعطشات للتذوق والتجربة . .

فراشات تغريها الأضواء يتساقطن فى أتون النار .

لكننى كثيراً ما كنت ضحية للمغريات .

لفقوا على القصص .

اتهمونى بأنى قناص أصطاد الطير الضعيف .

نهم فى المتعة . .

حشاش.. سكير .. عربيد.. جعلت من المسرح مصيدة سقطت فيها الكثيرات من الضحايا . .

والحقيقة كانت عكس ما لفقوه عنى وما ابتكروه لتحطيم سمعتى . .

أنا لا أدعى أنى كنت قديساً أو راهباً فى محراب . . أو متصوفاً . . أو معصوماً من الخطأ والشهوات .

لكننى — كغيرى أيام الشباب والفتوة — كنت أستجيب أحياناً للإغراء والجمال فى شىء من النهم . بيد أنى لم أشرب الخمر ولم أتعاط المخدرات . . ولم أرتكب موبقات سوى حبى السابق للقمار الذى سلبنى عشرات الألوف .

— خبرنى أولا يا أستاذ يوسف . . هل أنصفك أولئك الذين أرخو للمسرح ؟

— من النادر بكل أسف . . ومعظم من ادعوا معرفة تاريخ المسرح لم يعاشروه !

— متى بدأت هوايتك للمسرح ؟

— منذ كان عمرى سبع سنوات . وتضاعف هذا العشق على مر الأيام وتحول إلى وَلَه . .

وأصبحت خشبة المسرح أشبه بامرأة ذبت فيها وجداً . . لكنها كانت وما زالت امرأة متقلبة ، أذاقتنى حلوها ومرّها ، وبعت نفسى وشبابى لها . .

— هل كان النقد لأعمالك ومسرحياتك بناء أو هدماً ؟

— معظمه كان معاول هدم وتشويه لجهادى . . بيد أننى لا أنكر فضل بعض الأقلام النزيهة التى ساندتنى وأنصفتنى .

— لقد تخرج فى مدرستك وعلى يديك المئات ، وكثيرون منهم وصلوا إلى مرتبة النجوم ، فهل ظلوا أوفياء لك ؟

— لا ، مع الأسف . . إن الوفاء نادر . ومن أخلصوا لى يعدون على الأصابع .

— هل اطلعت على كل ما نشر عن تاريخك ؟

— قرأت معظمه .

— وما رأيك فيما قرأت ؟

— لم يتوخّ الحقيقة معظم من تعرضوا لتاريخ المسرح . وأنا أقسمهم إلى فئات :

الأولى كانت أشبه بطفل أمسك بدواة حبر « ودلقها » اعتباطاً لمجرد تشويه الصفحات البيضاء .

الفئة الثانية اعتمدوا فيما كتبوه على ما قرءوه فى المجلات وكانت بأقلام مغرضة ،ولم ينتبهوا إلى ما كان يسود الجو من حسد وفوضى وسوء نية . ولم يدركوا أن المديح كان يكال فقط لمن يدفع الثمن . .

والفئة الثالثة لم تدرس التراث على حقيقته ، وخدعت بما قرأت وما سمعت أحياناً بحسن نية .

أما الفئة الرابعة فمعظمهم أدعياء هدامون .

وأما الفئة الخامسة فقد اهتمت بشئون المسرح فى البداية ، وكان نقدها سليماً ، إلا أن أكثريتهم تركوا النقد المسرحى إلى السياسة بعد أن اندس فى ميدان النقد بعض المتطفلين .

ولا تظن يا حاضرى أننى كنت أغضب وأثور — كما ادّعوا على — من النقد

النظيف الموجه مهما كان قاسياً . والفنان الذى لا يؤمن بأهمية النقد النزيه . . لا يصح أن يكون فناناً .

وقد أشاعوا عنى أننى أيام رمسيس كنت أستأجر « فتوات » للاعتداء على النقاد . وأقسم لك إننى –بالرغم من احتقارى لما كنت أقرؤه فى الوريقات الصفراء من تجريح قاس – لم ألجأ قطّ إلى هذه الوسيلة الوضيعة التى اتهمونى بها .

ومراراً هاجمنى الصديق الكاتب الأديب محمد التابعى فى الصحف ، وفى الليلة نفسها التى كان ينشر فيها المقالة كنا نقضى معاً السهرات الممتعة ، ولم أمله يوماً أو أعاتبه هو أو غيره من النقاد المحترمين . وكنت أعجب بآرائهم وتوجيهاتهم وأقدرهم .

– خبرنى يا يوسف : هل أنت على استعداد أيها «الكاردينال» أن تضع نفسك على كرسى الاعتراف ؟

– نعم . . ولكن . .

– ولكن ماذا ؟

– قد تخوننى الذاكرة فأنسى بعض الأحداث .

– كيف ؟ . . ألم تدون تلك الأحداث فى أوقاتها ؟

– دونت الهام منها وقد ضاع بعضها .

– كيف ضاع ؟

– بعضها بسبب الإهمال . . وبعضها فُقد .

– كيف فُقد ؟

– عندما انفصلت عن زوجتى السابقة المرحومة عائشة هانم فهمى ، سهوت عن جمع ما سبق أن دونته بتواريخه . وعندما طالبتها به رفضت . كنت قد جمعت

معظمها فى صناديق كبيرة واحتفظت بها فى « بدروم » قصرها . ولما أصبح القصر لوزارة الثقافة بعد وفاتها بحثت عنها وعلمت أنها فقدت .

ــ هذه حماقة منك . . لديك كتالوجان كبيران بهما صور كثيرة لمسرحياتك قد تعاونك على الذكرى .

ــ هذا صحيح . . ولكنى لم أجدهما !

ــ سأدلك عليهما . . إن المجلدين تحتفظ بهما السيدة النبيلة عزيزة هانم فهمى شقيقة زوجتك السابقة ، وهى لن تتردد فى ردها إليك ، اتصل بها .

ــ سأفعل .

ــ كما أن هناك صناديق كبيرة مازالت فى مخازنك بشارع عماد الدين ، وفيها سجلات حاوية لكل إيرادات مسرحك وتواريخ عرض تراثك . ثم إن هناك أيضاً الكثير من إعلانات الدعاية ، وبعض المجلات القديمة ، وكذلك خطابات ووثائق وتسجيل للرحلات الجمة التى قمت بها .

اجمعها ، ثم استعن بذاكرتك . . إننى أعرف أن لك ذاكرة قوية . . خبرنى أولا كم عمرك ؟

ــ عمرى الفنى ؟

ــ لا تراوغ . .

ــ العبرة بشباب القلب .

ــ لا تضيع الوقت فى السفسطة ولا تخجل من شيخوختك . .

ــ اثنان وسبعون عاماً ــ تضاف إليهاسنتان !

ــ ما معنى هذا الهذر ؟

ــ كنت دائماً أقضى الصيف فى أوربا . . وكان السماح بالسفر إلى الخارج

عسيراً ، لكنه مباح لمن تجاوز السنين .

كان عمرى وقتها ثمانية وخمسين ، فنصحنى بعض الأصدقاء أن أستخرج (بدل فاقد) من شهادة ميلادى مضافاً إليها سنتان .

نفذت الفكرة ونجحت بفضل الخمس الجنيهات التى أتحفت بها الموظف المختص !

— هذا تزوير . . أين ولدت ؟

— فى مدينة الفيوم . على بحر يوسف الذى سميت باسمه . .

— ما اسم والدك ؟

— عبد الله وهبى

— ووالدتك ؟

— شفيقة فهمى .

— وجدك من أبيك ؟

— هديب قطب من مواليد تونس ، هاجر إلى مصر واستقر فى قرية طحا المنيا وعاش حتى بلغ المائة وإحدى عشرة سنة . .

— وجدك من والدتك ؟

— الشيخ على فهمى البغدادى ، وكان من كبار العلماء ورجال الدين فى دمشق ..

— وجدتك من أمك ؟

— مسيحية من جزيرة كريت اعتنقت الإسلام .

— يا لك من خليط ! هل كان لوالدك إخوة ؟

— نعم . فضيلة الشيخ أحمد هديب ، وكان رحمه الله رئيساً لمحكمة مصر الشرعية العليا ، ولكنه لم يكن شقيقاً لأبى . .

— وأين بدأت تعليمك ؟

— فى كتاب العسيلى فى الفيوم . . .

— وماذا كانت وظيفة أبيك ؟

— بدأ كمهندس للرى ، وهو صاحب مشروع ترعة وهبى بالفيوم التى حوّلت آلاف الأفدنة الصحراوية إلى أرض زراعية ومازالت هذه الترعة تحمل اسمه إلى اليوم .

— أتمم .

— ترقى والدى إلى « باشمهندس » ، ثم مفتشاً لرى الوجه القبلى ، وكان مقره مدينة سوهاج التى ترعرعت فيها ودخلت مدرستها الابتدائية .

— متى شاهدت التمثيل لأول مرة ؟

— بسوهاج حين حضرت فرقة جوالة « للتشخيص » ، كما كانوا يسمونه فى ذلك العهد ، وكان بطلها فناناً لبنانيـًّا يدعى سليم القرداحى . سأقصها عليك فى أسلوب مسرحى . .

أطفئوا الأنوار . .

ودقوا الدقات الثلاث . .

وارفعوا الستار . .

المنظر يمثل مدرسة ابتدائية . جرس المدرسة يدق . صياح صبية المدرسة وهم خارجون

الفراش : التلميذ يوسف وهبى .

يوسف الصغير : نعم يا عم حسنين ؟

الفراش : قال لى حضرة الناظر أقول لك لا تتأخر عن مواعيد المدرسة وإلا حيشتكيلك لسعادة الباشا والدك .

يوسف الصغير : حاضر .

الفراش : العربية قدام الباب وعم أمين السفرجى بيستنّى .

يوسف الصغير : حاضر . . متشكر .

الفراش : مع السلامة يا يوسف بك !

يوسف الصغير : الله يسلمك . .

الفراش : بكره الجمعة حتروح كالعادة مع سعادة الوالد إلى بستان الفواكه. إياك على الله تفتكرنى وتجيبلى معاك يوم السبت بإذن الله عنقود عنب .

يوسف الصغير : بس كده . . حاضر يا عم حسنين .

(ضجة أطفال)

يوسف الصغير : (يتحدث إلى سفرجى الأسرة بالعربة) يا عم أمين سيبت سريرك ليه ؟ داده قالتلى إن عندك حمى وإن عم عبد الرحمن البواب حييجى بدالك !

أمين : ماطاوعنيش قلبى أن غيرى ييجى بالعربية للمدرسة عشان يوصلك للسراية أحسن تعملها تانى وتنطّر جنب العربجى وتمسك بلجام الخيل وتسوقها زى ما حصل فى الأسبوع اللى فات ، لما العربية كانت حتقع فى الترعة .. لكن ربنا ستر . .

يوسف الصغير : أنت دايماً خواف . .

أمين : أنا مش خايف على نفسى .. أنا خايف عليك يا آخر العنقود .. وأخاف كمان من غضب الباشا والدك ، يالطيف لما يغضب الباشا !

(يوسف يضحك !)

يوسف الصغير : أسطى صالح ، إزيك ، آجى أقعد جنبك ؟

أمين : يوسف ، اقعد مطرحك . . احنا اتفقنا على إيه .

(صوت السائق وتبدأ الخيل تسير)

السائق : (صائحاً) إوعى رجلك . .

أمين : والدك الباشا عزم سعادة مدير المديرية وعيلته ، عشان يتغدوا عندكم بكره فى البستان .

يوسف الصغير : (متذمراً) أف !

أمين : زعلان ليه . . مش حتفرح أنك تلعب مع كمال ابن مدير المديرية ؟

يوسف الصغير : أنا ما احبش اللعب مع كمال ابن المدير ، ده ولد وحش ويحب صيد العصافير ، ولما يحط رجله فى البستان يطلق النار على الطيور وأنا أكره منظر الطير لما يصيبه الطلق ويقع والدم يخرّ منه

أمين : معاك حق ، وأنا كمان أكره حركات أمه الشركسية الأليطة وهى اللى دلّعت ابنها كمال لغاية ما فسد .

يوسف الصغير : من أسبوعين خطف كرباج سواق العربية وفضل يضرب كلب صغير فى البستان . . فاكر !

أمين : يا سيدى بيقولوا من شابه أباه فما ظلم ، وأبوه من أصل أرناءوطى ومن محاسيب الخديو .

(تسمع أصوات طبول وموسيقى وصياح)

يوسف الصغير : إيه ده يا عم أمين ؟ بص . شوف . . عجيبة ! مين الفارس

ده أبو دقن تخوف ؟ . . الراجل ده اللى راكب على الحصان الأبيض . . بص كمان شوف الست دى أم هدوم بتلمع شوف وشها ملغمط بالألوان ازاى. . الست اللى راكبة على الحمار ..وإيه دول كمان اللى حواليهم.. شايف هدومهم شكلها إيه . .

(يوسف وهبى بصوته العادى)

لا تزال صورة هذا المشهد العجيب غير المألوف منغرسة فى ذاكرتى ، كان الموكب وقد تجمهر حوله عشرات الغلمان من أبناء سوهاج يسير على كورنيش النيل ، يتقدمه رجل ضخم الجثة أسود الوجه كث اللحية ، وشعر الرأس .. وقد تمنطق بسيف طويل وحوله حرس حفاة ووراءه سيدة يلعب بشعرها الهواء وقد زينت صدرها ومعصمها بأساور من الماس ، ويتبعها رجال يرتدون أزياء مزركشة لم أشهدها من قبل ثم نساء فساتينهم تكسوأرض الطريق فتثير الغبار ، والطبول تدوى .

(وفجأة صاح أحدهم بصوت أجش)

أحدهم : يا أهل سوهاج الكرام ، هذا هو البطل عطيل وخلفه زوجته ديدمونة وهذه حاشيته ، هذا هو الفارس المغوار ، الذى يندلع من عينيه الشرار .. هذا هو المغربى الجبار ، الذى عبر الأنهار ، وهدم الأسوار ، وأشعل فى ديار الفرنجة النار ، وحول قصورهم إلى دمار .

يوسف الصغير : إيه الحكاية يا عم أمين . . مين دول ؟

أمين : حاسب يا أسطى (متحدثاً إلى أحد السائرين) قل لى يا أخ موكب إيه ده ؟

الرجل : ده موكب جوقة التشخيص .

أمين : تشخيص ؟

يوسف الصغير : تشخيص يعنى إيه !

الرجل : مشخصتيه بيحكوا حواديت . . . نصبوا خيمة كبيرة . . صيوان يساع أكتر من خمسمائة نفر . . وحيبتدوا الليلة فى الخرابة اللى جنب المحطة .

يوسف الصغير : وماشيين كده ليه ؟

الرجل : عشان يلموا الناس حواليهم و يعرفوهم بنفسهم.. ده اسمه إعلان ..

يوسف الصغير : إعلان . . !

الرجل : أيوه . . كل جوقة للتشخيص لما تعمل رحلة زى دى ، تمشى فى شوارع البلد بالشكل ده للإعلان عن الحفلة .

يوسف الصغير : ومين الراجل الأسود الكبير ده أبو شعر ودقن تخوف ؟

الرجل : ده صاحب الفرقة اسمه أبو سليم القرداحى . .ده مشخصاتى مشهور جه من لبنان لمصر .

(صوت المنادى)

المنادى : يا أهل سوهاج الكرام ، شاهدوا المشخصاتى الذائع الصيت أبو سليم القرداحى .. الليلة رواية عظيمة . . وأجرة الدخول زهيدة ثلاثة وخمسة وعشرة قروش ، ومقصورات للحريم ، دقى يا مزيكة !

(طبل ومزامير)

(يوسف وهبي بصوته العادى)

(سار الموكب ونحن خلفه بالعربة حتى وصل إلى القصر الحكومى المخصص بمفتش عموم رى النيل والذى نسكن فيه، وترجل الممثل المخيف الهيئة ودخل حديقة منزلنا) .

يوسف الصغير : عم أمين . . المشخصاتى دخل عندنا !

أمين : ضرورى . . لازم يزور والدك الباشا ، وبعدين يزور أعيان البلد عشان يوزع تذاكر الحفلة . .

(ركضت وما إن وصلت إلى حديقة المنزل حتى وجدت عطيل الأسود يتحدث إلى أحد الخدم ، وعندما رآنى سأل بلهجة ليست مصرية) :

القرداحى : شو بيكون الصبى الأشقر هادا أبو الشعر الطويل ؟

الخادم : ده يوسف بيه أصغر أولاد الباشا .

القرداحى : وليه مطولينله شعره متل البنات ؟

(وكانت ملاحظة الفنان اللبنانى فى محلها ، فقد تمنت والدتى رحمها الله أن يرزقها الله فتاة بعد أشقائى الخمسة . فلما ولدتنى قررت ألا تقص شعرى كسائر الأولاد كى تتخيل أنها ولدت فتاة ، فكانت تعنى بتمشيط شعرى الطويل . . وكم تحملت من سخرية زملائى الطلبة فى المدرسة ومعايرتهم ، هرعت إلى داخل القصر يشدنى الفضول لأرى كيف يقابله أبى، فأسرعت على أطراف أصابعى حتى وصلت إلى السلاملك ،

أى صالون الزوار ، واقتربت من الباب متلصصاً لأسمع ما يدور بينهما من حديث) .

الباشا : تفضل بالجلوس . .

القرداحى : ممنون كتير يا سعادة الباشا المفتش ، محسوبك أبو سليم القرداحى المشخص ومدير جوقة التمثيل العربى .

الباشا : أهلا وسهلا .

القرداحى : يا باشا أنا محسوب الخديو ، وها الدبوس البرلنت المرصع هدية من مقامه تقديراً لفنى . أنا شخصت قدامه فى الأوبرا الخديوية فشجعنى ووضعنى – الله يطول عمره – تحت رعايته . .

الباشا : أنا قرأت عن مقدرتك فى التشخيص فى الجرايد واسمك أصبح على كل لسان .

القرداحى : الله يشرف مقامك يا سعادة الباشا . . ونحنا محتاجين لتشجيع الباشوات أمثالك ، وهذه ماية بطاقة لحضور الروايات وأربع مقاصير . . أكون شاكراً فضلك لو أمرت موظفى التفتيش بشرائهم ، وهذه المقصورة دعوة لحضور رواية عطيل . . أرجو أن تتنازل وتتكرم بقبولها .

الباشا : بكل سرور .

القرداحى : أنا بانتظار تشريفكم منشان أستقبلكم على باب السرادق ، سعادتك وسعادة مدير المديرية .

الباشا : فى أى ساعة ؟

القرداحى : وقت اللى بتأمر . ما بنرفع الستارة إلا بعد وصولكم ، عادة

نبدأ التمثيل فى الساعة تسعة بعد صلاة العشا .

(و بدون أن أشعر أدخلت رأسى من فتحة الباب ومرة أخرى لمحنى عطيل العملاق فصاح) :

القرداحى : تعا يا صبى نابوسلك .

(حاولت الإفلات لكن بعد فوات الوقت)

الباشا : يوسف تعال .

(اعتدت طاعة أبى فرضخت وتقدمت بخطوات مرتجفة) .

القرداحى : يا ما شاالله ، يا أرض احفظى ما عليكى ، هيدا يوسف الصديق ويمكن أجمل !

الباشا : سلم على المشخصاتى المشهور أبو سليم القرداحى .

(وأسرع القرداحى وضمنى بذراعيه الضخمتين وقبلنى فصحت) :

القرداحى : آه دقنى شوكتاك (بكاء يوسف الصغير) لا تخاف يا بطل هيدى دقن مستعاره ، شوف ، نزعتها . هيدى لزوم التشخيص .

(يزداد بكى يوسف ويسمع بكاءه وهو يبتعد . .)

(الباشا والقرداحى يضحكان) .

القرداحى : بخاطرك يا باشا ، بتسمح أمر على سعادة المدير .

الباشا : اتفضل مع السلامة .

(موسيقى انتقال)

الباشا : تحب تيجى معايا التشخيص يا يوسف ؟

يوسف الصغير : من فضلك يا بابا .

صوت القرداحى : سلام لسعادة مفتش العموم — دقى يا مزيكه .

(تعزف الموسيقى سلام الخديو)

صوت القرداحى : سعادة مدير المديرية . .

(تعزف الموسيقى سلام الخديو)

يوسف الكبير : (دخلت خيمة كبيرة رصت فيها المقاعد ، وجلسنا فى المقصورة الأولى بمواجهة مقصورة مدير المديرية ، دخلت لأول مرة دنيا جديدة علىّ وأنا لا أعرف أن هذه الدنيا ستصبح دنياى فى يوم من الأيام ، كانت هناك أيضاً مقاصير مغطاة بالدانتيلا وخلفها أشباح لاتميزها العين) .

يوسف الصغير : مين دول يا بابا اللى مستخبيين ورا الستاير ؟

الباشا : دى مقاصير مخصصة للسيدات .

(صوت دقات خشبة المسرح التقليدية)

القرداحى : أهلا بكم يا أهل سوهاج الكرام .

(أغنية كورس)

الحمد لله لقد زال العنا

وحلت القربى بشائر الهنا

القرداحى : وهلاّ قبل مابنلبس فى تشخيص قصة عطيل ، بشكر سعادة المدير المعظم وسعادة مفتش الرى العظيم ، أرجيلة يا ولد لسعادة المدير وقهوة لسعادة مفتش الرى وصحن مليان بالملبس لابن الباشا يوسف الصديق .

(تصفيق)

يوسف الكبير : (وبدأت المسرحية ، وظهر الممثلون ، وكان صوت القرداحى

الأجش يهز الصوان ، وهامته الفارعة وعيناه المخيفتان قد ألجمت الجمهور كأن على رءوسهم الطير ، وشعرت بمتعة عارمة وأسرعت دقات قلبي وتصبب مني العرق ، وفجأة صرخ عطيل وقد اهتاج من هول خيانة ديدمونة)

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها من النساء تأتت !

(ثم التفت القرداحي إلى جهة مقاصير الحريم وقال معتذراً) :

لا تؤاخذونا يا هوانم ، هيدا كلام المؤلف مش كلامي . .

(ثم زمجر وانقض على شعر رأسه فانتزع منه خصلة)

(يوسف الصبي باكياً)

الباشا : اسم الله عليك يا يوسف . . لا تخاف .

يوسف الصغير : الراجل نتف شعر رأسه يا بابا . . !

القرداحي : الله يحرسك يا يوسف . . هادا مهو شعري هادا لزوم الرواية كباية لموناده لنجل المفتش .

(يوسف مستمر في البكاء)

ستار

ميلاد الهواية

فى تلك الليلة ولدت فىّ هوايتى للتمثيل – ولم أنم قبل أن أعلق على عمود فى سريرى ملاءة بدل الناموسية تمثل ستار المسرح . .!

ليلة لن أنساها . . نعم . . لن أنساها فقد غيرت مجرى حياتى . . ليلة مولد حب الفن فى أعماقى . . كما قررت مصيرى ومستقبلى . .

كنت أجمع زملاء المدرسة فى منزلنا الكبير الواقع على شاطئ النيل لنقلد ما شاهدناه من الفنان والرائد الكبير القرداحى الذى جاء ينشر الوعى التمثيلى فى أرض النيل . .

وبعد سنتين وصلت إلى سوهاج «جوقة» صغيرة باسم فرقة « التشخيص » العربى بطلها ممثل ومطرب اسمه الشيخ أحمد الشامى ، وقدمت عدة مسرحيات منها : روميو وجولييت وشهداء الغرام .

فتركت تقليد عطيل، إلى تمثيل دور روميو العاشق من دون أن أعرف الألف والباء عن العشق – ومرة أخرى جمعت زملائى لتمثيل روميو وجولييت ؛ وتصادف أن كان فى تفتيش الرى نجار عمل سابقاً كممثل فى الفرق الجوالة ثم انتهى به المطاف إلى وظيفة نجار – وهى مهنته القديمة – بعدما ذاق مرارة الاحتراف بالتمثيل فى عهود التخلف .

علم فؤاد النجار بهوايتى فأراد (تقرباً إلى الحكام !) أن ينال حظوة عند ابن مفتش الرى ، فعرض علينا خدماته وخبرته المسرحية البدائية . . وجننت من

الفرح عندما أحضر لنا نصوص بعض المسرحيات ومنها روميو وچولييت وشهداء الغرام .

غمرتنا الفرحة وبدأنا نوزع الأدوار المسرحية ، وتولى الأسطى فؤاد النجار وظيفة المخرج .

وبطبيعة الحال استأثرت بدور البطولة . أما دور چولييت فقد وزعناه على ابن أحد الأعيان، وكان من غلاة المتمسكين بالتقاليد وعتاة الرجعيين . قطعنا شوطاً كبيراً فى البروفات لكن من سوء الحظ عرف والد الطالب ممثل الفتاة چولييت أن ابنه يقوم بدور أنثى . .وهو من الذين يعتبرون فن التمثيل رجساً من عمل الشيطان ومهنة الرعاع . فاجأنا الوالد ذات يوم ونحن مندمجون فى مشهد غرامى ودخل علينا وأنا أعانق چولييت (ابنه) فانهال بهراوته الضخمة على رأسه حتّى فقد الولد وعيه ثم سحبه مغمى عليه بدون أن يوجه كلمة إلينا . . !

أسقط فى أيدينا ولم ندر كيف نتصرف . وفى اليوم التالى فاجأنى المخرج النجار على باب المدرسة ، ومعه صبية صغيرة تحمل كتبها ، وصاح قائلا : وجدت البطلة . . أصابنى ذهول تحوّل إلى فرح عظيم، وسألتها : « هل تقبلين القيام بدور جولييت » ؟ أجابت : « أنا أفضل رواية شهداء الغرام فقد أعجبتنى من فرقة أحمد الشامى ». سألت النجار : « وعائلتها » ؟ أجابت هى بجرأة : « بابا مسافر فى مصر وسيغيب ثلاثة أسابيع »، فسألتها : « تعرفى تمثلى؟ » فأجابت بثقة وقد لمعت عيناها الخضراوان وهزت رأسها الذى يتوجه شعر ذهبى متموج : « بكرة تشوف » !

. . بدأ المخرج ذو المنشار يلقنها الدور . .

أظهرت « برلنتى » قدرة فائقة واندماجاً فى الشخصية وموهبة فنية ، وكانت فى مشاهد الحب والهيام تبكى بدموع حقيقية ، وتتلوى وتتنهد ويعلو صدرها الصغير

ويهبط . . كانت برلنتي أكبر من سنها التي لم تزد على عشرة أعوام ، وما إن مضت بضعة أيام حتى جننا بها إعجاباً . . وكنت أتلهف إلى مواعيد التدريب الذى كنا نجريه فى « العربخانة » . . لألتقى بها وأشبع عينى من حلاوتها وحساسيتها ورقة صوتها وهى تقول : « أحبك يا روميو » ! !

كانت برلنتى تكبرنى بعامين ، ولم تكتف بتمثيل الغرام والحب ، بل أضافت من عندها العناقات الحارة الطويلة والقبلات التى ذقت فيها للمرة الأولى سكرة التقاء الشفاه بالشفاه ومتعة الاحتضان ورعشات غامضة ، بالرغم من أنه لم يكن مسموحاً بتبادل القبلات على المسرح فى الفرق المحترفة – ولم تكتف برلنتى الجميلة بتمثيل العواطف الحارة فى خلال البروفات ، بل كانت عند انصرافها تضغط على يدى ضغطاً شديداً وتتورد وجنتاها البضتان .

ذات مرة عند انصرافها دست بين أصابعى ورقة أخفيتها فى جيبى ، وما إن أويت إلى غرفتى ، وانفردت بنفسى ، حتى تناولتها بيد مرتعشة وإذا بها كلمة واحدة : « أحبك » . . وإذا بقلبى الصغير يكاد أن يقفز من صدرى !

لم أنم طول الليل ، واعترانى شبه حمى . تعددت الرسائل الصغيرة المعطرة التى كانت تشعل فىّ ناراً ، وجاء اليوم المنتظر ومثلنا المسرحية أمام زملائنا التلاميذ على سطح بيت النجار والمخرج ، فؤاد . وما إن انتهى التمثيل بنجاح فائق حتى اندفعت برلنتى فى غرفة بالسطح وأطبقت بذراعيها على عنقى وطبعت على شفتى قبلة كاد يتعطل من حرارتها نبض قلبى ، وجرت والدموع على خديها مسرعة بعدما دست فى يدى سلسلة رفيعة من الذهب معلق فيها قلب صغير بداخله صورة لطفلة جميلة لاشك أنها لها هى فى سن الرضاعة . . فأسرعت بإخفائها داخل منبه بجوار فراشى ! ! !

هل من المعقول أن يعشق صبى وهو فى التاسعة من عمره ؟

إن عاطفتى يومئذ كانت ولا شك بعيدة عن الجنس، فلم أكن قد وصلت إلى سن البلوغ بعد — ولم أر برلنتى الفاتنة بعد ذلك لعدة أيام ، كنت أتلظى فيها لهفة .

والدى يعذبنى وحبيبتى تحاول الانتحار !

وللمرة الأولى فى حياتى ، وفى تلك السن المبكرة ، ذقت لوعة الحرمان وقسوة الفراق، وفقدت قابليتى للطعام وتقلبت على الجمر المتقد .

وفى ظهيرة أحد الأيام شاهدت الأسطى فؤاد النجار يدخل حديقة منزلنا مكبلاً بالأصفاد ومعه شرطيان وكان يبكى بحرقة. وعلمت أن والد برلنتى قد اتهمه بسرقة سلسلتها الذهبية التى أعطتنى إياها . وبدون وعى أو حذر صرخت : « لا ، لا ، السلسلة معى لقد أهدتنى إياها برلنتى » ! !

وعرف والدى القصة كاملة . وعوقبت بالضرب والصفع . . أما الحبيبة التى استولت على فؤادى وأذاقتنى شهد الحب المبكر فقد أخبرتنى مربيتى رقية ، أنها حاولت الانتحار برائحة عطر الورود التى جمعتها من حديقة منزلها وأحاطت بها فراشها الصغير متأثرة بالمشهد الختامى للمسرحية ! وما إن مضى شهر على مغامرتى الأولى حتى علمت أن والدها الموظف الكبير نقل إلى وظيفة أعلى بمديرية المنيا وانقطعت عنى أخبارها، ولكنى سمعت بعد سنوات وبطريق المصادفة حديثاً جرى بين والدى ووالدتى فهمت منه أنهم زوجوها من قريب لها وهى فى الرابعة عشرة من عمرها . ولنترك برلنتى الآن ، برلنتى الشركسية المولد ، لنعود إلى سيرة المسرح .

لقائى بمحمد كريم فى القاهرة

نقل أبى إلى وظيفة مفتش عموم الرى بالقاهرة ، وسكنا مؤقتاً بمنزل فى شارع الهدارة

بعابدين، وهناك التقيت بزميل الطفولة محمد كريم، وكان من هواة مشاهدة السينما، وفى منزله خصص غرفة غطى حيطانها بصور من إعلانات سينما إيديال القديمة، وبطلات الأفلام الصامتة أمثال فرانشيسكا برنتيني وماريا ميلانو وغيرهما.. وبدأت هوايتنا لأفلام السينما ومغامرات نقولا كارتر وجون سنكلر، ودفعتنا هذه الهواية إلى قراءة كل ما ينشر فى الكتيبات من القصص البوليسية، وكنا نرتاد دارى سينما إيديال وأوليمبيا بشارع عبد العزيز عدة مرات خلال كل أسبوع، وقد كان سعر تذكرة الدخول قرشاً صاغاً واحداً. وساعدتنى أسفار أبى الكثيرة للتفتيش على مصالح الرى فى الوجهين البحرى والقبلى على إطلاق حريتى فى التغيب عن المنزل.

مغامرتى الثانية

قبل أن أنتقل إلى مغامرتى الثانية أريد أن أروى قصة رجل لعب دوراً بارزاً فى حياتى وغرس فى روحى الإيمان العميق الجذور بقدرة الخالق جل جلاله. وكانت خوارقه المذهلة بمثابة الضوء المشع والنبراس الذى أضاء طريقى وجعلنى أومن بالروحانيات منذ نعومة أظافرى. ورجائى من القارئ قبل أن ينعتنى بتهمة تصديق السحر والخرافات أن يسأل عن حقيقة صاحب هذه الشخصية الجبارة، مئات الوجهاء والعظماء ممن عاصروه وشاهدوا كراماته الخارقة.. وواجب كل مؤمن ألا ينسى قدرة الواحد القهار الذى يمنح من يصطفيهم من عباده موهبة إتيان ما يشبه المعجزات.. وكان لابد لى أن أعرج ناحية هذا الرجل فسوف يرد ذكره وأثر شخصيته فى أحداث حياتى.

قصة الرجل الخارق للطبيعة « الشيخ سليم الطحطاوى »

أسس أبى فى مدينة سوهاج – التى توطدت عرى الصداقة فيها بينه وبين أعيانها – مدرسة ابتدائية تحمل اسمه كعادته فى كل بلدة يحل فيها .

وأراد المرحوم والدى أن يضم إلى هذه المدرسة قطعة أرض مجاورة للمكان الذى وقع عليه اختياره لتكون ملعباً لأبناء المدرسة يمرحون فيه . . وبلغه أن قطعة الأرض هذه كانت فى الماضى مقابر مهجورة ، فاستصدر أمراً من الحكومة بإزالة المقابر وضمها إلى أرض المدرسة الجديدة . .

خلال معاينة أبى أرض المقابر شاهد رجلا عارياً كما ولدته أمه ، فى الثلاثين من عمره ، وعرف ممن صحبوه للمعاينة ، أن هذا الرجل قد اتخذ من المقابر مأوى له من بضع سنوات ، فأشفق والدى عليه . وجاءه فى اليوم التالى بثوب من القماش « الدمور » ليستر به جسده . كان هذا الرجل هو سليم الطحطاوى ، وهو اسم دوى صيته فيما بعد فى جميع أنحاء بلاد القطر لما أتاه من خوارق . .

عندما أهدى والدى إلى سليم ثوب القماش انفرجت أساريره وردّد مديحه فى الهواء ثم ضرب بقبضته على فخذه اليمنى ، وطلب من والدى أن يفتح قبضته – وإذا به يملؤها حبات من نوع من « الملبس » الفاخر .

ذهل والدى . .لكن الذين كانوا فى صحبته أفهموه أن سليما رجل معروف بالكرامات ويجلب ما يحتاج إليه من شراب وطعام فى طرفة عين !

سمعت القصة العجيبة من والدى ونحن على مائدة العشاء . غير أن الرؤية بالعين أصدق من رواية تسمعها الأذن ، حتى جاء ذات يوم مفتش عموم الرى الإنجليزى فى دورة تفتيشية ، وكانت مدينة سوهاج ضمن برامج جولته . أراد والدى أن يهيئ

لضيفه جوًّا من التسلية البريئة ، ففكر فى استدعاء الشيخ سليم ، الذى جاء فى أبهى حلة وهو الرجل المعدم الفقير . وبعد العشاء طلب والدى منه إكراماً للضيف أن يستحضر شيئاً أمام الضيف الإنجليزى فأجابه سليم :

— أجيبلك عنب من بستانك ؟ (كان لوالدى يومئذ بستان فاكهة كبير خارج سوهاج) .

وصاح الإنجليزي : « أهو ساحر؟ »

ساحر.. ضرب سليم بقبضته على فخذه اليمنى ، ومن تحت مائدة الطعام أخرج عناقيد عديدة من العنب . . ولم يصدق المفتش البريطانى عينيه ، فطلب منه ثمرة من جوز الهند (وهو لا يثمر فى أرض مصر) وفى ثوان أجاب الرجل ذو الكرامات طلبه ، فهب المفتش صائحاً «مدهش..عجيب ! » وهرول الخدم ليقصوا على والدتى ما شاهدوه ودخل علينا والدى ويداه مملوءتان بالملبس وغزل البنات والبندق المسكر وقال لنا :

— خذوا وكلوا . . إنها هدية من الشيخ سليم . .

وذاع صيته فجاءه الكثيرون من ذوى الحيثيات والمراتب من مختلف الجهات ، لمشاهدة خوارقه ، وكان لقاؤهم معه دواماً فى بيتنا . . أمر خطير يهمنى أن ألفت إليه نظر القارئ ، فما من مرة طلب من الشيخ سليم أن يستجلب شيئاً من الفضاء الغير المنظور إلا كان يردد اسم الله — وكان كأنه يحدث شخصاً خفيًّا — فآمنت منذ طفولتى أن الله مصدر القوة . . وسوف أتابع سرد ما شاهدته من معجزاته فى مناسباتها .

مع امرأة فى غرفة نومى !

ها نحن أولاء الآن فى القاهرة ، وقد التحقت بمدرسة عابدين الابتدائية ، وكانت إقامتنا فى حارة الهدارة مؤقتة ، وحدث قبل انتقالنا إلى حي المنيرة وكنت فى غرفة النوم وحدى ، أن جاءت سيدة تركية جميلة كانت فى سن والدتى تقريباً : فقدمتها أمى لى قائلة :

— هذه « تانت » نفيسة [1] .. سنسعد بنزولها ضيفة علينا بضعة أيام .

كان منزل شارع الهدارة ، كما سبق أن ذكرت ، صغيراً ، وغرف النوم فيه قليلة ! ولم يكن هناك حل إلا أن تحتل « تانت » نفيسة الفراش المخصص لنومى ، وأنام أنا معها فى الغرفة نفسها على الكنبة الإسطمبولية . ولما كان والدى متغيباً عن القاهرة فى رحلة تفتيشية فقد تقرر أن ينام شقيقى على فى غرفة والدتى .

كان هذا بالنسبة لى إحراجاً ما بعده إحراج . إذ وجدت نفسى أنام فى غرفة واحدة مع سيدة غريبة . ولاحظت أمى ارتباكى فنهرتنى قائلة :

— تانت نفيسة عزيزة علينا ، وهى بمثابة أمك .

نظرت إلىّ « تانت » نفيسة بعين فاحصة وسألت :

— كم عمر يوسف ؟

أجابت والدتى : « ١٢ سنة » . فابتسمت تانت نفيسة وقالت :

— ما شاء الله ! لكنه أكبر من سنه .

— أجابت والدتى :

— أى نعم ، إنه فارع الطول ، طالع لأبيه .

كان صديقى محمد كريم مولعاً ولعاً شديداً بالسينما كما سبق أن ذكرت وكان

---

(١) غنى عن البيان أن الاسم مستعار .

يصحبني معه إلى سينما إيديال أو سينما أوليمبيا ، وكلتاهما على مقربة من شارع المدارة .

ولما كان والدى خارج القاهرة فقد خلا لى الجو ، وكنت أتعمد الرجوع إلى المنزل فى ساعة متأخرة أتلمس طريقى فى الظلام إلى غرفتى وأخلع ملابسى فى هدوء حذراً من إحداث أى جلبة تزعج « تانت » نفيسة الغارقة فى نومها . ثم أصحو مبكراً لأصل فى الوقت المناسب إلى مدرسة عابدين الابتدائية .

فى قميص النوم . . وبيدها شمعة

ذات ليلة ولجت غرفتى ففوجئت « بتانت » نفيسة مستيقظة ، وبادرتنى قائلة : « انت جيت يا يوسف ؟ ... مش كويس السهر كل ليلة » . . ولم أحر جواباً . . واستطردت :

— لماذا لا تضىء الشمعة عندما تخلع ثيابك ؟ أنت مختشى منى ؟

لم ألفظ كلمة ، خجلا . ورقدت بثيابى ! .. وفى الليلة التالية ، وجدت الغرفة مضاءة بشمعة ، فلم أجسر على الدخول ، لكن « تانت » كانت قد أحست بوقع قدمى ، ولما استغيبتنى فتحت الباب . فوجئت بها أمامى فى قميص النوم والشمعة فى يدها ، وانحدر الضوء المتراقص على صدرها ونحرها ، وبرز نهداها ، فخفضت من نظرى توًّا . اقتربت منى وهمست : « مالك ؟ سلامتك ؟ مش عاوز تدخل ليه ؟ يلا يا حبيبى ، الساعة عشرة » . وأفسحت لى الطريق . دخلت مسرعاً وقد غمرنى الارتباك وهى تضحك ضحكات قصيرة ساخرة ، فتوقفت لا أعرف كيف أتصرف ، فأطفأت هي الشمعة وتمتمت : «علشان تقلع هدومك .. لسه بتتكسف مني » .

ثم استمر الهمس فى الظلام : « بتحب السينما قوى ؟ »

— أيوه . .

— وبتروح السينما كل ليلة ؟

— لا مش كل ليلة ، أنا بقعد عند واحد صاحبى قوى اسمه محمد كريم ساكن فى نفس الشارع .

— من سنك ؟

— تقريباً .

— لو ماكنتش مامتك قالت لى إن سنك ١٢سنة بس ، ماكنتش أصدق . . إنت عامل زى أولاد الإفرنج ، شعرك أشقر وعنيك خضر . ومش شبه إخوتك الكبار .

التزمت الصمت .

— انت نمت يا سوسو ؟

« أنا زى مامتك »

فى اليوم التالى بعد رجوعى من المدرسة نادتنى أمى وقدمت لى علبة من القطيفة قائلة :

— دى هدية لك من تانت نفيسة .

فتحتها . كانت فيها ساعة جيب بالمينا الزرقاء .

ــ مش تبوس تانت وتتشكر لها ؟

أجبت :

ــ متشكر قوى .

ولم أقبلها ، وخرجت مسرعاً مشيعاً بضحكاتها .

توالى الحوار الهامس فى الظلام كل ليلة ، وزال على قسط كبير من الحرج والخجل والارتباك . وفى إحدى الليالى، فى مطلع الفجر، بينما نحن نغط فى النوم ، طرقت آذاننا صرخات عالية. أفقت مذعوراً وسمعت «تانت» نفيسة تكرر: «بسم الله الرحمن الرحيم » ، فسألتها وأنا بين النوم واليقظة :

ــ إيه دا يا تانت ؟

ــ انت سمعت يا يوسف؟ يا ساتر يارب ! دى روح الجارية المدبوحة !

ــ جارية إيه المدبوحة ؟

ــ دادتك رقية كانت حكت لى أنها بتصحا ساعات وهى نايمة فى البدروم ، على صراخ يرعب ، وقالت لى إنها عرفت من الجيران أن زمان دبحوا جارية سودة فى المندرة اللى تحت !

ــ يا خبر ؟

ــ أنا سمعتها مرة قبل كده وحمدت ربنا أنك ماصحتش .

ــ دى حاجة تخوف !

ــ إذا كنت خايف تعال نام جنبي ، أنا زى مامتك. . .

ــ لا . لا . أنا مش خايف .

* * *

عند رجوعى من المدرسة فى اليوم التالى صادفت والدتى و« تانت » نفيسة فى الحارة عشت ألف عام

(الزقاق) ، وكانتا قد ذهبتا إلى سوق الموسكى لشراء بعض الأشياء . وما إن لمحتنى والدتى حتى نادتنى :

– تعال .. تعال يا يوسف..شوف تانت نفيسة جيبالك إيه؟ دى مدلعاك قوى!

كانت الهدية الجديدة بيجاما حرير ! وتوالت الهدايا .. شيكولاته . . قلم حبر . . حقيبة كتب . . .وشقيق على يتميز غيظاً ولو أنه كان يقاسمنى الشيكولاته !

التصقت بى فى الظلام وحدث ما لايصح وصفه !

كان اليوم يوم خميس، وقد عاد والدى من رحلة التفتيش ، فانزوت «تانت » نفيسة فى الغرفة لأن اختلاط الجنسين يومئذ لم يكن مباحاً ، إلى درجة أن « تانت » نفيسة لم تكن تجتمع بشقيقى الكبيرين .

ثم أخبرنى صديقى كريم أنه حصل على ثلاث بطاقات دعوة لحضور تمثيل فرقة من هواة المسرح ، ففرحت جداً .

عدنا بعد أن حضرنا مسرحية باسم « الشرف المغتصب » (وقد انضممت إلى هذه الفرقة فيما بعد) .

عدت من مشاهدة التمثيل بعد منتصف الليل ، وانسللت إلى غرفتى على أطراف قدمى خشية أن يشعر بى والدى . وكان الوقت شتاء .

سارعت إلى خلع ملابسى فى الظلام، ولما ارتميت على الكنبة اصطدمت بجسد ، ففزعت وصحت :

– مين ؟

ــ اسم النبى حارسك .. أنا يا حبيبى . .

ــ الله ! انت ليه ما نمتيش فى السرير ؟

ــ نام انت فى السرير . الليلة برد قوى .

ــ ده مش ممكن ، ما يصحش يا تانت .

ــ وحياتك أنا مرتاحة كده .

ــ لا ، ودى تيجى برضه ؟

ــ وبعدين معاك يا سوسو . طيب إذا كنت عاوزنى أنام فى السرير تعال ننام فيه احنا الاتنين ندفى بعض !

وتلمستنى فى الظلام حتى أمسكت بخاصرتى ، وفجأة سمعنا صرخة الجارية المزعومة وهتفت :

ــ ده صراخ الجارية اللى دبحوها . . أنا خايفة يا يوسف ، بس كنت مكسوفة أقولك . نام جنبى وونسنى .

وضمتنى بذراعيها إلى جسدها البض ، ودفعتنى دفعاً إلى الفراش ، ثم سمعت صرير قفل مفتاح الباب .

أسرعت دقات قلبى وشعرت بها تندس تحت الأغطية وتدثرنى وهى تهمس بحنان . .

لا أريد التعمق فى سرد التفاصيل ، ولا فى وصف ما جرى . سمعتها وكأنها تترنم بأغنية :

ــ مش ممكن يكون عمرك ١٢ سنة !

وللمرة الأولى فى حياتى علمتنى حواء قضم التفاحة .

وحذرتنى « تانت » نفيسة فى الصباح من ذكر شىء مما جرى بيننا لوالدتى .

ودست فى يدى قبل انصرافى إلى المدرسة خمسين قرشاً . (كانت فى تلك الأيام تعادل أكثر من خمسة جنيهات الآن) .

شعرت بزهو الرجولة . . وتوالت الليالى الدافئة . . والمنح المالية الصغيرة !

لكن عين الأم ساهرة ، فلم تفت لهفة «تانت» نفيسة وشدة اعتنائها بى مدارك أمى . ولاحظت أنها بدأت تنظر إلى شذراً . وعرفت أن « تانت » نفيسة كانت قد حرمت من الرجال بعد وفاة زوجها وهى مازالت شابة .

وفى أحد الأيام عدت متلهفاً للقاء « تانت» ، فبادرتنى أمى بنبأ رحيلها ، وفهمت أنها ارتاحت لهذا الرحيل ، ولم أشك أن أمى هى التى هيأت وسيلة التخلص منها . .

وهكذا انطوت صفحة مغامرتى الثانية وأنا صبى فى الثانية عشرة .

وانتقلت أسرتى إلى منزل كبير بحى المنيرة ، والتحقت بمدرسة الناصرية — مدرسة أبناء الذوات فى ذاك العهد — إلا أن صلتى بكريم لم تنقطع ، وكنا كلما سنحت الفرصة نهرع إلى دور السينما وأهمها الكوزموجراف الأمريكانى ، (ومكانه سوق القاهرة الآن بشارع عماد الدين) ، وكانت معظم الأفلام لا تزيد فترة عرضها على عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة ، والبرنامج يحوى من ثمانية إلى عشرة أفلام قصيرة بين فكاهية لماكس ليندر ، وتوتو ، وماكسينيت ، أو درامية مثيرة، ثم تطورت هوايتنا إلى مشاهدة المسرحيات بدار التمثيل العربى ، وحضرت لأول مرة ، فرقة رائد الغناء المسرحى سلامة حجازى ، ومنها عايدة ، وعظمة الملوك ، وتليماك ، فبهرت بالتمثيل والغناء والمناظر ، وتضاعف شغفى بالفن فانضممت أنا وكريم إلى فرق الهواة المسرحية ،ومثلت لأول مرة على المسرح مع فرقة الفنان حسن شريف رواية « الشرف المغتصب» وقمت بدور رجل عجوز عمره ٧٠ عاماً !

سافر شقيقاى الكبيران عباس وإسماعيل لإتمام الدراسات العليا فى جامعات لندن وباريس، وبقى لى شقيقان آخران هما محمود وعلى وهبى (الذى تخرج فى مدرسة الحقوق

(الكلية الآن). وكان محمود وهبي من هواة الموسيقى ، وعمل قاضياً بالمحاكم ، وهو يكبرنى بعشر سنوات أما أخى على فكنت أنا الذى دفعته إلى هواية التمثيل ، وكنت أنا آخر العنقود.

اشتهر أخى محمود بقدرته الفائقة على العزف على البيانو ، وأصبح منزلنا فى حى المنيرة ملتقى الكثيرين من مشاهير الموسيقيين ، من هواة ومحترفين ، وكان منهم العباقرة : محمد العقاد الكبير (نابغة العزف على القانون) والأستاذ سامى شوا ومصطفى بك رضا وأئمة الأدب الأساتذة عباس محمود العقاد ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وصادق جوهر ، ومحمد تيمور ، والمازنى ، ومحمد فهمى ، والتفتازانى ، وغيرهم ، وكانوا يجتمعون كل خميس بشقيقى محمود وهبى ، وتصدح الأنغام الشرقية الرائعة ، ويتبارى الأدباء والشعراء يتسامرون ويتفكهون . ولم تفتنى حفلة من حفلاتهم . وكانوا يبهرون فى وجودى وأقوم أنا بدورى على تقليدهم فيغرقون فى الضحك ويغمروننى بكلمات التشجيع .

* * *

تشبعت أذناى بالنغم والأدب ، وكنت أنتهز فرصة خلو المنزل فى ساعات النهار بعد عودتى من المدرسة وأعكف على تدريب أصابعى على البيانو مستوعباً ما علق بذاكرتى من الأنغام .

عرف شقيقى محمود هوايتى ، فتولى تدريبى وصقلى كل يوم ، وفاجأ يوماً «شلة» السمر وطلب منى العزف على البيانو فعزفت مقطوعة صغيرة صفقوا لها كثيراً ، وسمع عزفى وتقليدى لأفراد «الشلة» ، الأديب محمد فهمى (صاحب مدارس وادى النيل) ، فصار يؤلف لى بعض المشاهد التمثيلية ، كنت أؤديها فى سهرات «شلة» الأدب والنغم — كما ترأست فرقة التمثيل بمدرسة الناصرية ، التى كانت تقوم ببعض التمثيليات باللغة الإنجليزية ، وعنى بى كثيراً أستاذى مستر « سميث » ، ثم حل محله الأستاذ محمود

مراد خريج أكسفورد ، وأهدانى الأدباء العظام دواوينهم الشعرية ، وما نشر من أعمالهم الأدبية ، فكنت ألتهمها قراءة بشغف ونهم ، وأعترف بفضل الأديب العظيم صادق جوهر ، الذى كان يمضى معى عدة ساعات خلال الأسبوع ، ويستعيد ما قرأت ويشرح لى الكثير مما خفى واستعصى على إدراكى المحدود .

واستطعنا أنا وكريم ، أن نشترى آلة عرض سينمائية صامتة طبعاً ، وكنا نعرض يوم الجمعة بعض الأشرطة التى يسلفها لنا عامل العرض فى سينما أوليمبيا الذى توطدت صداقته بكريم ، وبمعاونة أخى محمود الذى كان يمنحنا بضعة قروش ؛ وذات يوم ، ولم نكن ندرى أن أبى كان يعقد اجتماعاً فى المنزل مع بعض أصدقائه من الوزراء ومنهم إسماعيل سرى باشا وحشمت باشا ، طرق آذانهم فجأة تصفيق الصبية الذين دعوناهم من أبناء حى المنيرة ، والذين كنا نسمح لهم بحضور العرض السينمائى مقابل مليمين لكل فرد !

وبينما نحن نستمتع بوقائع الفيلم ، روعنا بدخول أبى وصحبه «الصالة» .

وجرى الأطفال فى حين أخذ سرى باشا يصيح : « أنتو عندكو تياترو ولا إيه ! »

وكان نصيب كريم قرصة أذن شديدة أما أنا فقد أشبعنى أبى صفعاً وصودرت آلة السينما !

نلت الشهادة الابتدائية ، وانتقلت إلى مدرسة السعيدية الثانوية حيث كان لقائى الأول بمختار عثمان ، الذى أصبح فيما بعد من أئمة الكوميديا بمسرح رمسيس ، وعزيز أباظه (الشاعر الفحل) ومحمد صدقى ، الذى قاد فيما بعد أول طائرة مصرية من أوروبا إلى مصر ، وعبد الله فكرى أباظة ، وعشرات غيرهم ممن أصبحوا فيما بعد من قادة الفكر والرأى . وبدأت نشاطى الفنى فى المدرسة السعيدية . وابتكرت المنولوجات التى كنت أؤلف أسماء لها وأضع ألحانها .

مفاجأة !

كنت أتسكع أنا ومختار عثمان ومحمد كريم فى شارع عماد الدين، وأمام تياترو عباس (الكوزمو الآن) رأينا فى كل الشوارع المحيطة بالمسرح عربات فخمة بجياد مطهمة، وكان يجلس مكان السائق فى كل عربة رجلان يرتديان بزة فاخرة، تلمع فيها الأزرار النحاسية ويرتديان الطرابيش الفاقعة الاحمرار لكل منها زر من «الفرانشا» المذهبة . أدركنا من أول وهلة أنهم من الأجانب، وفجأة تدفق النظارة من التياترو — لكن الكثير منهم ظلوا وقوفاً — فاكتظ بهم شارع عماد الدين وقنطرة الدكة (نجيب الريحانى الآن) وسمعنا صياحاً ولأول مرة يطرق أذنى اسم « ساره برنار » .. «ساره برنار» وكان معظم النظارة يتحدثون بالفرنسية ، وتقدمت عربة ملكية فاخرة تجرها أربعة جياد « مسكوفى» وأمامها اثنان من السياس (وهم من أولئك الذين كانوا يتقدمون عربات الأمراء ، ويرتدون السراويل ويحملون فوانيس مضاءة عالية) وعلا الهتاف مرة أخرى : ساره برنار . . ساره برنار !

وما إن شقت العربة المطهمة طريقها بين الجماهير المحتشدة حتى اندفع الجميع بجنون نحو أعنة الجياد ، وتدافعوا بالمناكب ليحلوا محل الخيل ويجرون « عريش » العربة ! وسمعت أحد الواقفين يقول للآخر : « هذه أعظم ممثلة فى العالم » .

وبين الجموع رأيت شاباً قصير القامة يصرخ بالعربية لزميله : « تعال يا نجيب» ، واستطاعا بجهد خارق أن يصلا إلى عريش العربة ويشتركا فى سحبها ، وكان الشاب القصير يهتف بالفرنسية: «فيف ساره برنار»، وسمعت أحد النظارة يقول : « هذا عزيز عيد الممثل المصرى » . . فأجابه الآخر : « نعم أعرفه ، وزميله الوسيم اسمه نجيب الريحانى» .

سرنا خلف الموكب حتى وصل إلى فندق شبرد القديم ، وكان بشارع كامل الذى أصبح أخيراً شارع الجمهورية ، وعرفت من حديث الجمع أن الفنانة الكبيرة جاءت مع فرقة تمثيلية بدعوة من الخديو عباس ، فأدركت قيمة الفن والفنانين فى الغرب ، ودعوت الله أن يحقق أمنيتى فأصبح أنا أيضاً ممثلا مرموقاً .

وكنا لا ندع فرصة إجازة من المدرسة بدون أن نهرع إلى مسرح دار التمثيل العربى لنسعد برؤية أعضاء « جوقة » سلامة حجازى (من بعيد لبعيد) بإعجاب وتقديس كأنهم آلهة ، وكان منهم رواد نسيهم الناس الآن أمثال أحمد فهيم وعبد العزيز خليل وأمين عطاالله وحسن حسنى وإبريز وألمظ استاتى ومليا دايان ومريم صومات وغيرهم ممن كان لهم الفضل فى خلق النهضة المسرحية فى مصر والبلاد العربية .

أيها القارئ ، إن معظم هؤلاء مدفونون فى القاهرة فهل عنى أحد بقبورهم أو تخليد تاريخهم وكفاحهم ؟ !

* * *

تعرفنا على فتى رائع المظهر اسمه محمد توفيق خريج جامعة أكسفورد ، ومثلت معه دوراً صغيراً فى مسرحية جان دوريه ، ثم تعرفت إلى الفنان الهاوى المثقف وخريج جامعات إنجلترا محمد عبد الرحيم ، الذى راعنى أداؤه فى مسرحية « ديفد جرك » ، واشتركت فى حفلات النادى الأهلى الذى كان يقيم بحديقته حفلات سمر ، والتقيت بكبار الهواة مثل فكرى أباظه (أطال الله عمره ومنحه الصحة) وداود عصمت والفكهانى والخفيف الظل محمد عبد القدوس وغيرهم .

اقتبست منولوجاتى من الفرق الغربية التى كانت توالى عروضها على مسرح الكورسال (محلات عدس الآن) .

وضمنى محمد تيمور إلى فرقة أنصار التمثيل ، فالتقيت بسليمان نجيب ،

والدكتور فؤاد رشيد والسيد فؤاد قطبي والأخ زكى طلبات والفنان الكبير عبد الرحمن رشدى المحامى والأديب الشاعر المصارع عبد الحليم المصرى ، واشتركت معهم فى مسرحية العرائس بدار الأوبرا .

* * *

ذات يوم وأنا عائد من بروفة لجمعية أنصار التمثيل التى كانت تتدرب بمبنى « نادى أنصار القوة » بالفجالة شاهدت إعلانات لفرقة عزيز عيد لمسرحية « خلى بالك من إميلى » على مسرح الشانزليزيه بالفجالة أيضاً ، فسارعت بإخبار مختار عثمان ومحمد كريم ، وبحثنا عن مسرح الشانزليزيه فإذا به (خرابة أوحوش) ، وعندما دخلناه وجدنا مقاعد خشبية قديمة « ودككاً » متداعية من النوع الذى كان يؤجر فى الموالد من مخازن الفراشة ، وأمامنا مسرح قواعده « دكك » أيضاً وستاره الخارجى مهلهل ، أما أجر الدخول فكان ٦ قروش ، وبرغم ذلك لم يزد عدد النظارة على حفنة تعد على الأصابع .

رفع الستار بعد أن أصابنا الملل من طول الانتظار ، وبدأ التمثيل فشاهدنا مباراة فنية رائعة من عزيز عيد ونجيب الريحانى واستيفان روستى وروز اليوسف وأمين عطاالله وحسين رياض وحسن فائق وصادق (المقرطم) ونظله مزراحى وصالحه قاصين وإستر شطاح وصوفى ديمترى ، وكل هاتيك الفنانات كانوا من لبنان الشقيق . وأسجل وأشهد أننى حتى اليوم ، وبعد أن شاهدت خلال هذه السنوات الطوال معظم أساطين الكوميديا والفودفيل فى مختلف عواصم أوربا ، أن فرقة عزيز عيد كانت تفوقهم فناً ومقدرة وإبهاراً ، إلا أن أروع ما حوته ذاكرتى أننى وصديقىّ ، رغبة منا فى متعة إشباع نفوسنا وأرواحنا وأبصارنا من هؤلاء الفنانين العظام ، انتظرناهم خارج المسرح فى قهوة متواضعة ملاصقة «للخرابة» ، وعندما حضروا باسمين مشرقين اجتمعوا حول

مائدة متواضعة يوزعون حصصهم الضئيلة من إيراد الشباك ، ثم اشتركوا فى أكلة « مدمس » وقد طفحت وجوههم من السعادة والبشر ، فشتان بين الأمس واليوم !

المغامرة الغرامية الثالثة !

رجعت يوماً من المدرسة لأجد فى منزلنا فتاة فى مثل سنى تقريباً تجلس مع والدتى ، رائعة الحسن ، لها ضفائر كستنائية طويلة ، وعينان دعجاوان عسليتان .. وبادرتنى والدتى :

— تعال يا يوسف وسلم على أختك تهانى[1] بنت عمك ع . ب . س عمدة كذا .. وصديق والدك الحميم . . حاتنزل ضيفة عندنا لأنها حاتدخل مدرسة السنية للبنات . أنا فرحانة بيها قوى لأنكم كلكم صبيان وأهوه الحمد لله بقالك أخت حلوه . .

كانت تهانى بالرغم من صغر سنها تكاد تكون كاملة النضج ، ولأنها من بنات الريف كان الخجل يغلب عليها ، فهى تتحدث قليلا ، وإذا نطقت بصوت خافت ، لا تجرؤ على رفع عينيها فى وجه محدثها . . ربما لثقل أهدابها . . ومحياها يفيض نورانية ، سريعة الضحكة قصيرتها . . تعبث باستمرار بضفيرتيها الغزيرتين بأناملها البضة ، وفى عينيها حَوَر ، يزيد من اتساع حدقتيهما .

خصص لها والدى خادماً تقياً ملتحياً حاجاً لإيصالها والعودة بها من المدرسة يومياً — وفى أيام الخميس من كل أسبوع كنت أستأذن والدتى لتصحبنى تهانى إلى السينما مع شقيقى على وصديقى محمد كريم .

كانت تهانى أقرب إلى الامتلاء منها إلى النحافة ، وقد وهبتها الطبيعة نحراً جميلا

---

(١) اسم مستعار .

وساقين ممتلئتين مستقيمتين . .وكانت تزين كعبيها بخلخالين ذهبيين . . وبصعوبة أقنعناها أن تخلع الخلخالين بعدما لاحظنا أنهما يجتذبان الأنظار ، مما كان يثير بعض التعليقات السليطة ، وهو أمر كان يغيظني ، فأشعر بدماء الغضب تغلي في عروقي ، ولم تكن عوامل غيرة كما قد يفهم القارئ ، وإنما مشاعر أخ يغار على أخته ويحميها . .

قصة « غادة الكاميليا » للمنفلوطي تفتح لنا آفاقا . .

زالت الكلفة بيننا ، وأصبحت « تهاني » في نظري فرداً من الأسرة وأسبغت على بيتنا بهجة ، وملأت تهاني فراغي ، ولازمتني كظلي ، تذاكر دروسها معي ، ونتسامر بمتعة بريئة وأولعت مثلي بقراءة ما كان يصل إلى يدي من القصص البوليسية والرومانتيكية التي كنت أشتريها ببضعة ملاليم من باعة الكتب القديمة على سور « سراية » شريف باشا بشارع عبد العزيز .

في أحد الأيام وقعت في يدي مجموعة من الروايات كان بينها رواية « غادة الكاميليا » ــ تعريب المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي ــ وما إن انتهيت من قراءتها حتى أخذت بروعتها وأحداثها وتفتحت أمامي آفاق جديدة وتذوقت الأحاسيس الجياشة في الحب فسارعت بإهداء الرواية إلى تهاني .

لن أنسى تلك الليلة .

كانت تهاني تحتل غرفة ملاصقة لغرفة نومي تشاركها فيها « داده رقية » مرضعتي ومربيتي ، دخلت الأخيرة عليّ وأنا على أهبة النوم لتخبرني أن تهاني تجهش بالبكاء ، وكانت قد اعتذرت عن تناول طعام العشاء معي كعادتها .

قمت لفوري وطرقت بابها فلم تجب ، وفتحته بحذر وإذا الغرفة يكتنفها الظلام ،

ناديتها فلم أسمع جواباً . .اقتربت من فراش تهانى فرأيتها مستلقية على سريرها بثيابها الكاملة . . كانت تجهش بالبكاء ، وفى حالة يرثى لها . . ولم تشأ فى البداية أن تبادلنى الحديث ، ولكنى ظللت ألح فى السؤال ،وأنارت داده رقية الغرفة فإذا بتهانى تحتضن رواية غادة الكاميليا وهى تتمتم وقد خنقت صوتها العبرات ، وانهمرت الدموع على خديها . مسكينة مرجريت غادة الكاميليا ماتت بالسل محرومة من حبيبها !

كانت هذه القصة السبب فى تفجر أحاسيس تهانى . . فقد ظلت ساهمة عدة أيام ، وإذا ما حدثتها تجيبنى بهمهمة وكأنها مستفيقة من حلم .

أقرأ : « حبيبي يوسف » ، فأحتضن الوسادة وأشبعها تقبيلا !

عدت يوماً من المدرسة قبل رجوع تهانى وأنا أتأبط لها مفاجأة تسرى عنها ، وهى قصة جديدة أهدانيها زميلى بالفصل سعيد ذو الفقار (عم الملكة السابقة) ، واسمها «تحت ظلال الزيزفون» . أسرعت إلى غرفتها لأضع الرواية على مكتبها الصغير الذى رصت عليه كتبها ودفاترها المدرسية ، ولكى أتسلى أخذت أقلب صفحاتها فوقعت يدى على قصة أخرى بعنوان « شهيدة الهوى » ،فوجدت بين صفحاتها رسالة مطوية بخط تهانى . . كان من واجبى ألا أقرأها ، إلا أننى لمحت كلمتين . . كان أول سطر فى الرسالة : «حبيبي يوسف» . . توقفت أطيل النظر إلى الكلمتين ذاهلا ، وكان من الطبيعى أن أتم قراءة الرسالة . . لم تكن تزيد على ثلاثة أسطر ما إن انتهيت من قراءتها حتى فهمت كل شىء . . .

وأعترف أننى شعرت بالزهو وتملكنى فرح طاغ ، أشبه بفرح مونت كريستو عندما اكتشف الكنز ، وصادف هذا الاكتشاف هوى فى نفسى ، ونسيت لحظة أن تهانى كانت كأختى .

سمعت وقع خطاها فأسرعت راكضاً إلى غرفتى وأوصدت الباب وارتميت على فراشي ، وبدون أن أدرى احتضنت رسالتها وأشبعتها قبلات . .

شغل هذا الاكتشاف اللذيذ بالى ، فتهانى جميلة وشهية ، بيد أنى فكرت فيما سيحدث لو علمت أمى أو أبى أنه نشأت بيننا علاقة غرام . .

لقد جاء بها والدها صديق والدى الحميم ، وديعة فى منزلنا وكله ثقة وإيمان وطمأنينة ، ودوت فى أذنى الكلمة التى قالتها لى أمى : « . . هذه أختك تهانى » . وتضاعف هذا الدوى فكان كقرع الطبول ونذير الكوارث .

يوم كان الشرف غالى الثمن

فكرت كيف أواجه تهانى بعد اكتشافى ؟ وهل أستطيع مقاومة الإغراء ؟ وقد كان الشرف فى ذلك العهد غالى الثمن ! وسقطت صريع معركة نفسية هائلة ؛ ثم استقر رأيى أن أقبع طوال تلك الليلة فى غرفتى . .أوصدت الباب بالمفتاح . . مر وقت تملكنى فيه لظى الشباب . . وللمرة الأولى قاسيت من الكبت !

فجأة طرق بابى. . لم أجب فى البداية . لكن سمعت صوت أمى ، فتحاملت وفتحت الباب .

— مالك يا يوسف . .ليه قافل الباب على روحك ؟

— تعبان يا ماما.. أنا تعبان . .

— بعد الشر حاسس بإيه ؟

ثم وضعت يدها الحنون على جبينى ، وصاحت جزعة :

— أنت سخن . . !

— لا . . بس راسى واجعانى . . .

حانت التفاتة منى ، فلمحت تهانى واقفة وبجوارها داده رقية ، طلبت أمى من داده أن تعد لى مكمدات من الخل والسبرتو ، ونادت تهانى : « قربى يا تهانى . . يوسف عيان » .

— سلامته . . من إيه ؟

— لازم من ماتش الكورة فى المدرسة . . ضربة شمس . .

وجاءت داده رقية بالمكمدات ، وإذا بخادم يعلن وصول أبى من السفر وهو يسأل عن « الست الكبيرة » . . التفتت والدتى إلى تهانى باسمة ، وطلبت منها أن تنوب عنها فى وضع المكمدات المهدئة ،وهى لا تدرى أن اقتراب تهانى من فراشى سوف يؤدى إلى نتيجة عكسية !

أغمضت عينى لأتحاشى لقاء النظرات ،وبدأت تهانى تؤدى المهمة باهتمام وعناية يشوبها الاضطراب ، وعادت أمى مسرعة فقلت : « عايز أنام » .

— من غير ما تاكل لك لقمة ؟

— لا ياماما ، ماليش نفس . .

وخرج الجميع ، وتركت لخيالى العنان .

مهما كان الحب محرماً فهو يثير نشوة عارمة ، وتهوراً ، ولكننا فى تلك العهود الصارمة كنا نقدس الواجب وتحكمنا التقاليد . تهانى فى عنقى أمانة ، والويل لى إذا تهاونت فى صيانتها برغم أن طيش الشباب وحرارته يأتيان على الأخضر واليابس .

عندما أشرق الصباح لمحت عيناى وريقة تحت الباب فالتقطتها فى شوق . . كانت رسالة لا تزيد على سطر واحد :

« طول الليل يا يوسف لم يغمض لى جفن ، مشغولة عليك . . ألف سلامة . . » وكانت بخط تهانى .

تقابلنا على مائدة الإفطار فلم أشر إلى الرسالة بحرف.

كانت داده رقية متزوجة من خادم قديم للأسرة.. وكانت له غرفة فى جناح الخدم.

أصاب عم أمين زوج داده رقية توعك فجائى ، فاضطرت داده إلى تركنا ، لتعنى به، وخلا الجو. وكانت تهانى الريفية الخجول أكثر منى جرأة. . وفى الليل وأنا فى فراشى ، وقد تملكنى الأرق والسهاد ، شعرت بباب غرفتى يفتح ، وبيد تتحسسنى فى الظلام الدامس. .تظاهرت بالنعاس، وإذا بها ترقد بجوارى ، ولفحت أنفاسها الحارة جسدى .. وانتصر علينا الشيطان . .

سليم الطحطاوى يهدد بإفشاء سرى لأبى !

تعددت اللقاءات . . اللهم غفرانك !

نادانى أبى فى صبيحة يوم ، وأخبرنى أن الشيخ سليم الطحطاوى رجل الخوارق والكرامات — الذى سبق وتحدثت عنه — سيصل فى اليوم نفسه ، وأمرنى أن أذهب بالعربة للقائه على المحطة فسينزل علينا ضيفاً .

توسلت إلى تهانى أن تصحبنى فى العربة، واستأذنت والدتى فقبلت ، وما إن نزل الشيخ سليم من القطار وتقدمت إليه بالترحيب حتى صرخ فى وجهى :

— مش عيب عليك يا ولد يا ضلالى . . دى أختك. . وانتى يا بنت يا قليلة الحيا. . . انتو تستاهلوا الحرق !

أسقط فى يدى،وأصاب تهانى رعب هائل . .وفى طريقنا إلى العودة تضرعت إليه أن يكتم السر، فى حين أجهشت تهانى فى البكاء،حتى لانت قسوته،ووعدنا بالكتمان واشترط قطع علاقتنا نهائياً . فأقسمت له بالتوبة ، وكنت جاداً فى توبتى وندمى .

ساءت صحة تهانى . . وعافت الطعام . .وأصابتها حمى . .فسارعت والدتى

بإخطار أبي الذى أرسل إلى والدها برقية ، فجاء إلى القاهرة مسرعاً وقرر أن تصحبه ابنته إلى بلدته لتبديل الهواء .

هيهات أن أصف ساعة الفراق . .وتأوهاتها المكتومة. . وخشيت أن تنهار تهانى فيكشف السر . . وهرولت إلى غرفتى لأختبىء وأطلقت لدموعى العنان .

رحلت تهانى ، وبعد شهر عرفت من والدتى أنها خطبت إلى ابن خالتها ، ولن تعود إلى المدرسة . وظلت رسالتها الصغيرة عدة سنين فى مخبأ خفى فى غرفتى حتى تحللت بمضى الزمن !

خيرية .... ووصفية

جاء موسم الصيف ، وصحبت أسرتى إلى استامبول ، ونزلنا ضيوفاً بقصر فضيلة الشيخ على البندارى من كبار العلماء كان مفتياً سابقاً بدمشق ثم رئيساً لمكتبة السلطان عبد الحميد . وحضر أشقائى الذين كانوا يدرسون بمعاهد أوربا ليشاركونا عطلة الصيف .

بقصر الضيافة التقيت بفتاتين فى عمر الزهور ، وكانتا يتيمتين وربيبتين لأسرة مضيفنا العلامة الكبير ، وكانتا أصلا من قرية فى مقاطعة أذربيجان فقدتا أسرتهما فى زلزال دمر ثلاثة أرباع القرية الصغيرة ، وصيرها قاعاً صفصفاً .

أصغرهما هى خيرية .. كانت فى رقتها أشبه بإناء من البورسلين ، صبه صانع ماهر ، أما أختها الكبرى وصفية فكانت أقل من شقيقتها فتنة وأنوثة وأهدأ طبعاً .

جذبتنى خيرية بمرحها ، وكنت أميل دواماً إلى تتبع ظلها ، أما العلامة الكبير فبدأ يلقننى قواعد اللغة التركية ، واستطاع أن يقنع أبى وأمى بتركى تحت رعايته

بقصره فى استانبول لمواصلة الدرس .

أما خيرية فقد بدأت تلقننى بعض العبارات التركية ، وكنت أميل دواماً إلى مرافقتها لنصطاد معاً السمك من شرفة القصر المطلة مباشرة على البسفور الرائع ، ثم ننزل معاً إلى المياه الزبرجدية ، نسبح ونتداعب وأملى النظر إلى ساقيها العاريتين البضتين الورديتين ، وكان شقيقى إسماعيل منافساً خطيراً ، بيد أن تقارب السن بينى وبين خيرية نصرنى على شقيقى .

من الخطر وضع النار قرب الهشيم ، فقد تطور الغزل البرىء فى ظاهره إلى القبلات الخاطفة على الخدود ، لكن الخلوة كانت مستعصية ، ولا فرصة للانفراد ، ولكنى لم أعدم الحيلة ، وأقنعتها فى أحد الأيام بأن نستأجر « كايك » ، وهو من نوع زوارق الجندول ذات الطابع البسفورى ، ومسانده ووسائده من القطيفة ، وحبائله مجدولة من خيوط القصب السميك ، واشترطت على صاحب المركب ألا يرافقنا خشية من أعين الرقباء . سار بنا « الكايك » ، وتوليت التجديف بمرح ، وأمسكت هى بالدفة ، وتهادى بنا « الكايك » ، وقد تملكنا الهوى وغفلنا عن مرور الوقت والزمن ، وكانت أصداء نغمات الناى التركى الساحر التى تداعب آذاننا من بعيد تحريضاً لكلينا على الاسترسال فى عواطف جياشة .

وفى صحوة مفاجئة بوغتنا بضباب كثيف مصبوغ بلون البنفسج يكتنفنا ، واختفت عن أعيننا معالم البسفور وقصوره الشامخة .

جزعت خيرية والتبس علينا طريق العودة فى حين كنت أشق بالمجدافين الماء على غير هدى .

وكان العقاب لى بالمرصاد ، فقد أحسست بصدمة هائلة عند دوى صفير باخرة . . انقلب بنا الزورق ، ومزقت الفضاء صيحات خيرية ، وغصنا فى اليم ، وأفقت وأنا

مسجى على سرير ضيق وأمامى شرطيان . وكان رجلا الشرطة يتحدثان بلغة غريبة عرفت فيما بعد أنها الرومانية .

وتنفست الصعداء عندما لمحت خيرية على الفراش المقابل . كان الليل قد حل، وبعد أن أنعشونا ببعض الشراب الساخن ، جاءوا بثيابنا التى كانوا قد خلعوها عنا لتجفيفها ، وأدركت أننا كنا فى باخرة التقطتنا ، ونقلونا فى زورق إلى الشاطئ ، حيث كانت عربة إسعاف بانتظارنا ، وأعطتهم خيرية عنوان القصر . وخلال الطريق ظلت خيرية تبكى وتلطم خديها .

الشيخ يضرب خيرية ، وأنا أكذب وأمى تساعدنى !

عندما وصلنا إلى شرفة القصر كان أفراد الأسرتين فى حرج واضطراب . أمسك فضيلة الشيخ بخيرية واندفع بها داخلا ، ووقفت أقص تفاصيل الحادث مستعيناً بمخيلتى الروائية ، وصبغتها بصبغة النزهة البريئة ، وانضمت والدتى الحنون إلى صفى لتهدئ من حدة أبى ، وأقنعته بأنه مجرد سوء حظ أصابنا ، وأن النزهة كانت بريئة طائشة ، فى حين كنت أسمع عويل خيرية وما تتلقاه من ضربات .

فى اليوم التالى اختفت آثار خيرية ، وعدنا بعد أيام إلى القاهرة بشقيقتها وصفية ، بعد أن اعتذر أبى لفضيلة الشيخ ، وألغى برنامج دراستى فى استانبول . وقد فهمت من الأحاديث التى اختلست سماعها أن والدتى كانت قد أعجبت بالفتاتين ، ونوت أن تزوجنا أنا وشقيقى على منهما عندما نكبر ويحين وقت الزواج .

كنت مصارعاً !

داوم البطل عبد الرحيم المصرى على تدريبى ، وأولعت بالرياضة ولوعى بالتمثيل ، وخصصت يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع بمواصلة هوايتى للمصارعة وحمل الأثقال ، وتوطدت صداقتى — برغم فارق السن — بأعضاء « نادى أنصار القوة » . وكنت أجتمع بهم ، ومعى صديق الصبا مختار عثمان ، عند حلوانى ملاصق لمسرح الكورسال (محلات داود عدس الآن) .

وكان مسيو « دلبانى » صاحب المسرح يجلب مختلف الفرق الأوربية ومنها الأوبرات والاستعراضات وفرق التمثيل. وكنا ، أنا ومختار ، نداوم على حضور عروضها ، فأعجبت جدًّا بما كانت تقدمه من منولوجات واسكتشات فكاهية ، واعتدت تذوق الألحان الغربية ، فاقتبست منها الكثير لمونولوجاتى واسكتشاتى الفكاهية التى كنت أشرك فيها زميلى مختار ، ومنها « هتشكو » والجندى الشجاع . . وبنات اليوم . . وحوشونى يا ناس حوشونى . .وكذا بعض الرقصات الغربية .

وكان من زبائن الحلوانى الكثيرون من فنانى وفنانات شارع عماد الدين . وتعرفت هناك على استيفان روستى ويوسف الريحانى شقيق المرحوم نجيب الريحانى . وكان استيفان شابًّا جميلا ممشوق القد أطلقوا عليه « دون جوان » وكانت الأرتستات الأجنبيات يتنافسن على اجتذابه والاستئثار به .

واستيفان من مواليد القاهرة من أم إيطالية ، ووالده كان بارونًا نمساويًّا . .

كان استيفان أحد أفراد فرقة نجيب الريحانى الذى كان يعمل على مسرح الآبى دى روز (L'Abay des Roses) ويتقاضى مرتباً قدره ثلاثون جنيهاً من صاحب

المسرح ، وهو يونانى اسمه « ديموكانجوس » . وقد ابتكر نجيب شخصية كشكش بك ، وهو عمدة ثرى يسيل لعابه للجنس ، فيبذر أمواله على الراقصات والأرتستات اللاتى يحطن به — على المسرح — من الفنانات الأجنبيات .

وكان طابع العرض من نوع « الفرانكو آراب » . .

أقبلت الجماهير على هذا المسرح ، وبخاصة أولاد الذوات الأثرياء الذين كانوا يتنافسون على مصادقة الممثلات الأجنبيات ، ولكل منهم بطانة من الفتوات ، ومعظمهم من الأفاقين المتمتعين بالحماية .

وكثيراً ما كانت تحدث — من جراء هذه المنافسات — معارك ، ولا تخلو ليلة من طلقات الرصاص وطعنات الخناجر . وجمع صاحب المسرح أموالا طائلة . . وكان مرتب الريحانى يتضاعف كل شهر .

وشجع هذا الإقبال المنقطع النظير «ديموكانجوس » على بناء مسرح كبير بشارع عماد الدين أطلق عليه اسم مسرح « الإجبسيانه » ، وقفزت شهرة الكوميدى نجيب إلى أعلى الآفاق .

وبرغم انشغالى بالفن نلت شهادة الكفاءة فسر والدى لنجاحى . .

وحل موسم الإجازات واضطررت إلى مصاحبة الأسرة لقضاء عطلة الصيف فى عزبتنا بالسنبلاوين .

وكان هذا معناه حرمانى من الجو الفنى الساحر الذى استحوذ على كل مشاعرى ، ومتعة قضاء الليالى اللذيذة مع الأصدقاء .

ومرت الأيام رتيبة مملة . ليال مظلمة يهاجمنا فيها الذباب .. والبعوض الزاجل بلا رحمة ولا هوادة . .

وأعملت الفكر ، فهدانى إلى وسيلة نفذتها برغم أنها خبيثة ملتوية .

كان والدى يسعد عندما أصحبه كل يوم فى مروره على « غيطان » المزروعات وكل منا يمتطى جواداً . وفى منحنى على المصرف ، وفيما كان والدى منشغلا بالحديث مع ناظر العزبة ، تظاهرت بالسقوط من على صهوة الجواد ، وصرخت متألماً وتظاهرت بإصابة ساقى .

أفزع هذا الحادث والدى ، وعندما عدنا إلى القصر استدعوا « مجبراتى» من الفلاحين فأصررت على أن أعود إلى القاهرة ليعالجنى « برسومة المجبراتى» . .ومن شدة توجعى اضطر أبى إلى الموافقة . وزودتنى أمى الحبيبة بما قد يلزمنى من نفقات العلاج .

ونجحت الحيلة وعدت بالقطار إلى القاهرة مصحوباً بأحد الخدم . وخلا لى الجو وانعدمت الرقابة لأقضى سهراتى مع « الشلة » .

وتظاهرت عند وصولى لمنزلنا بحى المنيرة بالعرج الشديد المصحوب بالتأوهات أمام الخدم ولجأت إلى الفراش توًّا . .حتى إذا ما أقبل الليل كنت أتسرب فى الظلام من باب السلاملك الخلفى إلى الخارج وأقضى أمتع الأوقات مع «الشلة» بعماد الدين ، وأعود قبل مطلع الفجر .

ولم أبح بسرى إلا لداده رقية التى كانت موضع ثقتى ، فقد كان حبها إياى يفوق الوصف ، واتصلت بوالدى تليفونيًّا لأطمئنه أن « برسومة المجبر» بعد فحص ساقى اكتفى بتدليكها يوميًّا ، وقرر أنها تحتاج إلى علاج يومى لمدة شهر .

الثلاث ورقات . . اللى على الصنيورة يكسب !

كانت لعبة الثلاث ورقات نوعاً من المقامرة يقوم بها حول سور حديقة الأزبكية عصابات تغرى المارة بتجربة حظهم ، ويتظاهرون بأنهم من هواة المقامرة فى حين

يصيح زعيمهم بقوله : « اللى على الصنيورة يكسب » ، ويوزع ثلاث ورقات كتشينة إحداها ورقة « الصنيورة » وهى البنت ، ومن يسعده الحظ يضع نقوده على الصنيورة فيربح ثلاثة أضعاف ما وضع .

وكان موزع الأوراق يتظاهر بالسكر ، وأمامه الكثير من الجنيهات ، وأعوانه يتظاهرون باستغلال سكره للربح السهل .

كنت أصاحب بطل المصارعة الأستاذ عبد الحليم ، ومعنا بطل معروف عملاق اسمه فايق خيرى ، فلفتت أنظارنا اللعبة ، وما يجنيه المتظاهرون بالمقامرة من ربح أكيد ، وحرضونا على انتهاز الفرصة مثلهم ،ولم نكن ندرك أنهم يتظاهرون باللعب وأنهم يكونون عصابة .

وأرشدونا إلى تخمين موضع الصنيورة من بين الثلاث ورقات ، ووضع فايق خيرى ريالا فربح ، ووضعت أنا عشرة قروش فربحت أيضاً ، فأغرى هذا عبد الحليم فوضع جنيهاً خسره . واستمرت المقامرة حتى استولوا على كل ما كان فى جيوبنا وكانت فى مجموعها حوالى الخمسة جنيهات . .

فزمجر فايق خيرى . . وصاح قائلا :

— دول خدوا فلوسنا . . دول عصابة التلات ورقات . . هاتوا فلوسنا يا حراميه . .

وانقض على زعيمهم يحاول استرداد ما خسرناه ، وإذا بأعوان الزعيم الذين كانوا يتظاهرون بالربح ينقضون على فايق خيرى . . وقامت المعركة وإذا بأعضاء العصابة يقذفون فى الهواء . . وكيل لهم الضرب والركل الموجع وانقلبت الآية ، وأطلقوا سيقانهم للريح وهم يصيحون يا بوليس . . . ! !

وجمع فايق خيرى الجنيهات المبعثرة ، وكانت حصيلتنا سبعة عشر جنيهاً تقاسمناها ونحن نقهقه ، وأسرعنا الخطى إلى شارع عماد الدين ه

* * *

ذات ليلة قدمني الصديق استيفان روسّي إلى فنانة يونانية تدعى « بيّا » . وعرفت منه أن أولاد الذوات يتنافسون على اكتساب ودها ، ويغدقون عليها الهدايا والحلى والجواهر ، وبهرني جمالها ، وكانت سمراء . . خضراء العينين . وأصاب كيوبيد قلبينا بسهم واحد منذ أول لقاء .. وكانت تكبرني بخمس سنوات على الأقل وتفيض منها أنوثة صارخة ، وتهت إعجاباً بنفسي لتفضيلها إياى أنا المفلس على أصحاب الثروات الضخمة ، وكنت أنتظر انتهاءها من عملها على مسرح الكورسال كل ليلة لقضاء سويعات هناءة فى عش غرامها .

وفى إحدى الليالى وأنا قابع بقهوة « البوديجا » المجاورة للمسرح ، فوجئت بثلاث قبضايات (فتوات) من الأجانب الأشرار يتحرشون بى ، فأدركت على التو أنهم محرضون لإيذائى ، فتظاهرت بعدم الاهتمام .

وإذا بأحدهم يتقدم من مائدتى ، ويعاجلنى بضربة على طربوشى ، ثم قلب المائدة علىّ فسقطت أرضاً . . وبرغم اكتظاظ القهوة بالزبائن لم يتقدم واحد منهم لنجدتى . . هببت واقفاً وحملت مقعدى لأكيل لهم الصاع صاعين ، إلا أن ثلاثتهم « تملكوا » منى وأشبعونى لطماً .

وبينما أنا رازح تحت صفعاتهم ولكماتهم ، وأتهاوى مترنحاً ظهر فجأة وبمحض المصادفة البطل عبد الحليم المصرى ومعه العملاق فايق خيرى .

صرخ فايق : « يوسف بيضربوه الخواجات » !

وفى ثوان فرّ المعتدون وقد أصاب كلاً منهم ما أصابه .

لكن مع الأسف كانت « بيّا » الحسناء من المدمنات على الكوكايين الذى كان موضة فى ذاك العهد والذى قضى على الكثير من الشبان .

حاولت « بيا » أن تشركنى معها فى تعاطى هذا السم الأبيض الوبيل .

وحاولت إرضاء لها مجاراتها . وكانت عندما تتناول بضع تنشيقات تجحظ عيناها وتتحول إلى خرساء فاتحة فاها ثم تغيب عن الوعى . . وباستمرار هذه الحالة اعترانى السهاد ولم تتقبل طبيعتى هذا السم . وأحمد الله على ما منحتنى الطبيعة من حصانة ضد المخدرات والكحول . .

لاحظ أستاذى عبد الحليم احمرار عينى والهالة السوداء التى كانت تحيط بهما وانقطاعى عن التدريب الرياضى . ولم أجد بداً من إطلاعه على السر ، فثار ثورة عارمة وأنبنى تأنيباً جارحاً، وأجبرنى أن أعده بقطع علاقتى بها ، وبخاصة عندما أخبرته بأنها كانت تعطينى نقوداً لأشترى لها زادها من الكوكايين من صيدلية كان يعرفها المدمنون وقد جمع صاحبها ثروة كبيرة .

أصر عبد الحليم أن أصحبه إلى حلبات المصارعة فى سرك الحاج سليمان الذى كان يستعرض فيه كل ليلة قوته الهائلة . . ولكى يغرينى بمصاحبته كان يدفعنى إلى منازلة بعض محترفى المصارعة من الأجانب بأجر مغر . فأصبح لى مورد مالى يتيح لى المتعة ، وفى الوقت نفسه يبعدنى عن إغراء الراقصة « بيا » .

كما كنت أشترك فى تلحين بعض المقطوعات لفرقة على الكسار وأمين صدقى ، واشتركت مع الزميل حسن فايق فى إحياء الحفلات ، ولحنت له لحن الكوكايين الشهير الذى رددته الملايين . . وهذا اللحن بالذات نسبه بعض المؤرخين خطأً إلى نابغة الموسيقى سيد درويش . كما نجحت لى عدة ألحان بمسرح الكسار منها لحن السبارس . .وحنوا يا ناس على الفقير . .وغيرهما .

عثرت علىّ فى حلوانى الكورسال الغانية «بيا» وأنا أجالس الزميل مختار عثمان ، ولما حاولت اختلاق المعاذير لانقطاعى عنها حطمت على وجهى كوباً من الزجاج ،

أصابنى بجرح كبير ولولا ستر الله لفقأت لى عيناً ! !

ولما عرف أستاذى عبد الحليم بما حدث قادنى قسراً إلى « قرقول » الأزبكية للتبليغ ضدها ، وإذا بنا نكتشف أن أحد عشاقها سبقنا ببلاغ اتهمها فيه بسرقة مبلغ ٥٠٠ جنيه من جيب سترته فى أثناء قضاء ليلة فى مسكنها ، واكتشفنا أن لها سجلا حافلا . ولم تمض أيام حتى رحلتها القنصلية اليونانية من مصر ، بعد ثبوت بعض التهم ، واعتقدت ساعتئذ أن صفحاتها انطوت من حياتى . لكن للأقدار دعابات عجيبة . . !

* * *

انقضت عطلة الصيف وعدت إلى دراستى مع مختار إلى المدرسة السعيدية ، وداومت على الاشتراك فى حفلات النوادى ، وبخاصة النادى الأهلى . وعاد شقيقى إسماعيل من فرنسا بعد حصوله على الليسانس ، وانضم إلى فرقة أنصار التمثيل ، وقدم لها مسرحيتين عربهما عن الفرنسية وهما . « جان دوريه » . . و « العرائس » . وشجعنى على مداومة هوايتى للفن . . والمصارعة . . ومواصلة التدريب على البيانو ، مخفياً نشاطى الفنى على أبى ، لكنه فى الوقت نفسه كان يحثنى على الدراسة والاهتمام بالتحصيل .

ومرت السنة بسلام وانتقلت إلى السنة الرابعة .

* * *

اشتركت مع أستاذى عبد الحليم فى حفلة مصارعة ، وقدمنى للنظارة كبطل أرمينيا الأخرس !

نازلت خصمى وانتصرت عليه بعد عراك عنيف ، وكنت أزن فى ذلك الوقت خمسة وثمانين كيلوجراماً برغم صغر سنى ، وتضخمت رقبتى وعرضت أكتافى .

فتاة تتقدم منى صائحة : أبولّو.. أبولّو !

حين انصرافنا من السيرك اندفعت فتاة أنيقة تفيض أنوثة ، ذات أنف رومانى يحلى وجهها الرائع التقاطيع ، ويزين جبينها تاج من شعر كستنائى مقصوص على شكل غرة منسقة ، وعلى خدها الأيسر شامة تزيدها فتنة .

وقبل أن تنبس بكلمة عانقتنى بحرارة ، ثم فاجأتنى بالحديث باللغة الأرمنية التى لا أعرف منها كلمة ، ولم ينقذنى من قبلاتها سوى صياح عبد الحليم .

— إحسان . . إزيك . . (وقال هامساً موجهاً كلامه لى) « دى ممثلة أرمنية مشهورة » والتفت جهتها قائلا :

— دا مايقدرش يرد عليكى لأنه أخرس وأطرش . .!

فكتمت ضحكتى .

تعلقت إحسان بذراعى وتشبثت بى فرحة طروباً .

وعندما نادى عبد الحليم حوذياً ركبنا ثلاثتنا العربة ، وأنا صامت أحاول الخروج من هذا المأزق الغير المنتظر . وما إن وصلت بنا العربة إلى شارع عماد الدين حتى تمكنت بإلحاحها وإصرارها أن تقنع عبد الحليم بدون خجل أن أصحبها إلى منزلها .

ابتسم عبد الحليم وغمز بعينه كمن يقول : « . . رزقك فى رجليك » . . .

وأعترف أن دعوتها راقتنى برغم تظاهرى بعدم الفهم . فقد كانت كتمثال فينوس ، فضلا عن أن التصاقها بى طول الطريق ألهب حواسى . .

نزل عبد الحليم متمنياً لنا ليلة سعيدة .

سارت بنا العربة إلى حى شبرا ، واخترقنا طرقاً ضيقة ، وأرشدت الحوذى إلى منزل قديم وسحبتنى من ذراعى وأنا أطيعها كالحمل الوديع .

كانت تقطن فى الدور الأرضى . وما إن أغلقت الباب حتى احتضنتنى فى

الظلام وهى تتمتم . . .« أبولّو . .أبولّو ! »

وقد فهمت بالبديهة معنى هذه الكلمة ، وتهت إعجاباً بنفسى ، فأبولّو هو إله الجمال عند الإغريق !

أشعلت إحسان لمبة جاز جميلة غطاؤها أحمر قان . . وأدركت أن دارها لم تدخلها الكهرباء ، وبدأت على التو تخلع ملابسها وهى تشير لى أن أجاريها فترددت . . . ثم أطعت وأنا خجل !

أسرعت إحسان فأحضرت زجاجة من النبيذ ، وملأت كأسين ، وطلبت منى أن أعاقرها الخمر ، أنا الذى لم يذق للكحول طعماً قبل ذلك . . وشاركتها الشراب مجبراً ، ولم يرقنى طعمه .

جنس وحشيش .. والباب يفتح ....

ثم سارعت إحسان إلى أحد الأدراج فأحضرت علبة من الصفيح وأنا أراقبها ، فوجدتها تخرج طباقاً وورقاً للف السجائر وتحشوها بقطع خضراء ، وهى تترنم بأغنية أرمنية ، وقد أسدلت شعرها الكستنائى حتى لامس خصرها ، فبدت تحت وهج الضوء الأحمر كأنها فعلا تمثال فينوس ، ثم أشعلت اللفافة فعبقت رائحة غريبة بالنسبة لى ، كانت أشبه بعبق البخور والمسك . وقدمت اللفافة لى ، فلما لاحظت ترددى قالت بالتركية جملة انتهت بلفظة « حشيش » .

وجلست على ركبتى ، ولم أكن فى حاجة إلى إدراك مقصدها ، فلغة الغرام تكفيها الإشارة والتلميح . .

وبينما نحن فى سكرة الهوى قرع الباب فأسرعت ونفخت فى لهب اللمبة فأطفأتها ، وأنا لا أفهم لتصرفها سبباً . وعلى حين غرة دوى الباب بدفعة عنيفة وانفتح وظهر

شبح ، وصرخت إحسان ، ثم همست لى بالتركية كلاماً لم أفهمه ، وربما أرادت منى أن أختبئ عن عين القادم، فتسمرت فى مكانى ، وإذا بالغريب يضىء بطارية ويصوبها نحوى وصاح بالتركية « كبلك » . . !

وفطنت إلى خطورة موقفى، فمن يكون هذا الطارق الليلى ؟ أزوج هو ؟ أم أخ ؟ أم عشيق ؟

ولم يكن هناك بد من أن أقف موقف المدافع عن نفسى وعن المرأة التى وهبتنى جسدها . ولم يضيع الرجل الغامض وقته ، فقد انقض على انقضاض الصاعقة ودار بينى وبينه صراع الموت . . وأسعفتنى عضلاتى الرياضية ، إلا أن خصمى كان لى نداً ، وكانت اللطمات من كلينا تطيش عن هدفها فى الظلام . ونسيت وجود إحسان ووفقت أن أصيب خصمى بلطمة فولاذية فى أمعائه ، وسمعته يئن ، فانهلت بوحشية عليه أكيل له الضربات القاصمة ، ووقعت يداى على عنقه فضغطت بدون رحمة أو شفقة ، حتى سكنت حركته وانهارت قواه ، وساد الصمت المروع مدة قطعتها إحسان بما فهمت منه أنه يتحتم على النجاة بنفسى والهرب .

ركلته بقدمى ، وكان أشبه شىء بجثة هامدة ، وأضاءت إحسان المكان بشمعة وأخذت تناولنى ثيابى وهى ترقب الرجل الصريع حتى خرجت مهرولا إلى الشارع ، وسمعت ساعة محطة مصر تدق الثالثة صباحاً ! !

وصلت إلى بيتى فى مطلع الفجر ، فإذا بأمى ساهرة بانتظارى قلقة البال ! وما إن رأتنى حتى صرخت فزعة :

— يوسف؟ كنت فين ؟ الله ! وشك وارم ، يا دهوتى . . مين اللى عمل فيك كده ؟

— العساكر الاسترالية ، اجتمعوا على خمسة وأنا خارج من السينما ، وخدوا اللى

فى جيبى ونزلوا فىّ هات يا ضرب . واحد منهم خبطنى على رأسى بقزازة وبعدين لقيت روحى فى الإسعاف . وهناك فوقونى. الحمد لله ماتخافيش يا ماما ، قدر ولطف .

انفجرت المسكينة أمى باكية واحتضنتنى ، ثم وضعتنى فى فراشى وهى تصب اللعنات على جيوش الاحتلال .

الصحف تروى الحادثة

بكتنى ضميرى تبكيتاً شديداً ، وشعرت بأنه كان من واجبى أن أظل بجانب إحسان أذود عنها وأحميها من الخطر ، كما أننى خشيت أن أكون قد ارتكبت جريمة شنيعة ، وقد تركت الرجل بلا حراك فهل مات ؟ وماذا يكون موقف إحسان أمام « البوليس » والعدالة ؟

تراكمت هذه الهموم والمسئوليات فى خاطرى ، وتخيلت ما يخفيه لى الغد . وتملكتنى حيرة جارفة ، ثم استقر رأيى بعد سهادى بضع ساعات أن أبادر بمقابلة الأستاذ عبد الحليم المصرى لأستشيره وأستنجد به ؛ وخرجت أبحث عنه ، برغم إلحاح والدتى على بملازمة الفراش ، وبرغم تورم وجهى وما اصطبغ به من جراء الكدمات .

عبثاً حاولت العثور عليه . وشعرت بانهيار فارتميت على مقعد فى مقهى مواجه لنادى أنصار القوة أترقب مجىء عبد الحليم حتى الخامسة بعد الظهر ، بدون أن أحس بالجوع أو بحاجتى إلى طعام .

وكثيراً ما راودنى أن أذهب إلى بيت إحسان لأستطلع أخبارها ، وأقف على ما أصابها .

وجاءت النجدة فى النهاية ، فرأيت عبد الحليم يصل فى عربة ، فاندفعت نحوه راكضاً . وفوجئ بمظهرى ، ودهش للإصابات التى كانت على وجهى ، وحالة الانهيار

التى تملكتنى . وفى غرفة مكتبه قصصت عليه كل ما وقع لى ، فنظر إلىّ مليًّا ، وكانت بيده جريدة وأشار إلى صفحة وقال : اقرأ . فقرأت النبأ الآتى :

« أصيبت الممثلة إحسان كامل ، واسمها الحقيقى "كارملا ششديان" ، وهى أرمنية الأصل ، بطعنة سكين فى ذراعها اليمنى من زوجها السابق "آغوب كركاشيان" وهو قبرصى رحلته إدارة الأمن العام المصرية بتهمة الاتجار بالحشيش والهيروين إلى وطنه الأصلى قبرص . ويظهر أن هذا المجرم صاحب السوابق عاد خلسة إلى القطر المصرى ، وفاجأ زوجته السابقة . وذكرت الممثلة فى التحقيق أنها رفضت استقباله فى مسكنها فى زقاق مرقص فى حى شبرا ، فاقتحم الباب وقام بينهما شجار ، وبرغم أنه أصابها بطعنة سكين فى ذراعها تمكنت من الخروج من دارها وأغلقت باب منزلها على المعتدى بالمفتاح وهرولت إلى قره قول شبرا حيث استنجدت بالبوليس واصطحبتهم إلى بيتها . ولما هاجم البوليس المنزل للقبض على المعتدى ذى السوابق لم يجدوا له أثراً .

وأدركوا أنه قفز من إحدى النوافذ ، وعند المعاينة تبين أن بعض الأثاث محطم . وفى غرفة النوم حدثت معركة حامية . ونقلت المعتدى عليها إلى المستشفى القبطى حيث أجريت لها الإسعافات الأولى ، وتقرر لها علاج لمدة ١٥ يوماً . . »

* * *

أدّى اندماجى فى جو شارع عماد الدين وانشغالى بالوسط الفنى إلى إهمالى

دروسى . ولما حان امتحان البكالوريا حاولت التهام كتبى مستعيناً بذاكرتى الفوتوغرافية فخذلتنى لضيق الوقت . وكان صديقى مختار يعانى ما أعانيه من يأس ، وتوقع الإخفاق والسقوط فى الامتحان وما سيحل بنا من غضب الوالدين.. وهداه تفكيره الصبيانى لإنقاذ الموقف أن نحرق قماش « صوان » الامتحانات المقام فى حوش المدرسة قبل بدء الامتحانات بيوم لتعطيله وذلك بإلقاء (شراق) الخشب المشتعل . ودفعنى الطيش إلى الموافقة على اقتراحه العجيب ، وتمادى مختار إلى حد أن تعهد بتمزيق خراطيم الحريق على أن أتولى أنا إلقاء حزم الخشب المشتعل (الشراق) وكانت النتيجة أن ضبطنا متلبسين بالجرم .

وصدر القرار بطردنا فوراً .

غضب والدى غضباً شديداً ، ولما كان رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية فقد استطاع إلحاقى بمدرسة الجمعية ، وكان مقرها فى قصر قديم بحى الدرب الأحمر ، وحذا والد مختار حذو والدى ، وكان ناظر المدرسة فضيلة الشيخ أحمد حسين شقيق عميد الأدب العربى طه حسين .

لم يردعنا العقاب ، فداومنا الاشتراك فى حفلات النوادى والاشتراك فى تمثيليات الهواة . ولما جاء موعد امتحان البكالوريا التالى كنا أسوأ حالا فلم نستوعب خلال العام شيئاً من الدروس .

كانت « وزارة المعارف » تقيم الامتحانات المقررة للمدارس الأهلية فى دورها حيث تبعث بمظاريف الأسئلة مختومة لتحفظ بمكتب ناظر المدرسة ، وعرض على مختار أن نسرق الأسئلة لنضمن النجاح .

— نسرقها إزاى يا مختار ؟

— فى الليل . مافيش حد من الفراشين يبات جوه المدرسة .

ـــ مش فاهم غرضك !

ـــ اصبر عليّ امال . . نشترى كام طفاشة .

ـــ طفاشة يعنى إيه ؟

ـــ الطفاشات اللى بتفتح أى باب ، أنا شفت منها كتير عند الحداد فى شارع محمد على . نفتح بالليل مكتب الناظر وننقل الأسئلة .

ـــ لكن دى مختومة بالشمع الأحمر .

ـــ ماشفتش رواية جون سنكلر إزاى بيفتحوا أختام المظاريف الشمع ويسخنوها ويلزقوها تانى ؟

ـــ يا نهار زى بعضه . . يعنى لازم نبات فى المدرسة . . ونستخبى فين ؟

ـــ القصر دا قديم ، وأنا شفت فى البدروم حمام تركى مهجور ، فى ساعة الانصراف نزرق على سلم البدروم ، وبالليل نشوف شغلنا .

ونفذنا الخطة ، ولم يصبنا الرعب من وحشة المكان ، والظلام الدامس ، والفئران الكبيرة التى كانت أحياناً تقفز علينا ، واستعنا ببطارية فصعدنا السلم العتيق ، وتمكن مختار من فتح غرفة الناظر بالطفاشة ، وشهقنا عندما تبينا على ضوء البطارية مظاريف الامتحان المتراصة على مائدة وسط الغرفة ، وفى ظرف ما لا يقل عن الثلاث ساعات فصلنا أختام الشمع الأحمر « بموس جيليت » ، وحرصاً على عدم اكتشاف أمرنا لم نأخذ من كل ظرف نسخة ، بل نقلنا الأسئلة على ورق وأعدنا لصق الأختام بتسخينها وعدنا إلى مخبئنا ، وقد غمرتنا الفرحة . ولما طلع النهار وبدأت الحركة تدب فى حوش المدرسة تسللنا من مخبئنا المخيف بدون أن نذوق طعم النوم . وما إن وافت ساعة الانصراف حتى هرعنا إلى منزل مختار عثمان وتصفحنا أسئلة الامتحانات فهالنا أن أسئلة الهندسة والجبر لم يكونا ضمن ما نسخناه .

واستوعبنا عن ظهر قلب كل الأجوبة على أسئلة الامتحان ، لكن الجريمة كالعادة لم تتم ، إذ عندما ظهرت النتيجة نجحنا فى كل العلوم ورسبنا فى علمى الهندسة والجبر ، وسقطنا فى امتحان البكالوريا لثانى مرة .. وثار والدى ثورة عارمة وأقسم أن يبعدنى عن القاهرة وملاهى وأجواء شارع عماد الدين ، وأجبرنى على الالتحاق بمدرسة مشتهر الزراعية الداخلية بقرية طوخ ، وطلب من ناظرها الرياضى محمود توفيق « الأولد » (كما كانوا يطلقون عليه) ألا يسمح لى بترك المدرسة فى إجازات الأسبوع إلا مرة واحدة كل شهر !

فى مدرسة مشتهر

أود أن أرسم للقارئ صورة واقعية لما كانت عليه الأنظمة وشروط الالتحاق بالمعاهد العلمية . فقد كان قبول التحاق الطالب لا يتقيد بالحد الأقصى للسن ، فكانت مدرسة مشتهر الزراعية خليطاً متبايناً متنافراً من الشباب والرجال الذين تجاوزوا الثلاثين أو حتى الأربعين ، وبعضهم من الأعيان والمتزوجين وذوى الأسر والأبناء .. بل العمد أيضاً . وقد رفضوا التقيد بالنظم المدرسية ، ولم يكن لهم هدف سوى التفاخر عند الحصول على دبلوم من معهد حكومى ، وكانت غالبيتهم من الأثرياء . وكان هدف رجال الحكم هو نشر شىء من الثقافة والمعرفة ، وكذا الترغيب فى التثقيف بين الكبار ممن فاتهم القطار كالمثل القائل : اطلبوا العلم ولو فى الستين !

وكان بعضهم يدخنون السجائر خلال الحصص والمحاضرات ، ويتعاطون الحشيش فى عنابر النوم وحقول الزراعة ، وكان الغش العلنى متفشياً فى امتحانات النقل السنوية بالاستعانة بالمذكرات المحشوة داخل الجيوب . وكان أغلبهم يقوم بالتسلل ليلا إلى قرية طوخ لاحتساء الخمر والاجتماع ببعض الساقطات اللاتى يستجلبهن صاحب

فندق أجنبي . بيد أنهم كانوا يمتازون بالرجولة والنخوة . وقد عشت سعيداً بينهم مشغوفاً بالدراسة ومتفوقاً . وبدأ أبى يحسن معاملتى والاطمئنان على مستقبلى .. وأحبنى ناظر المدرسة ورعانى ، لأننى أشعت الروح الرياضية بين الطلبة وكونت من بعضهم « نادى الألعاب والمصارعة » وفرقة تمثيلية ، وكثرت حفلات السمر التى كنت ألتقى فيها المنولوجات .

فى أثناء دراستى بالمدرسة الزراعية أتم « جيوكانجوس» بناء مسرح (الأجبسيانه) وانتقل إليه الفنان نجيب الريحانى الذى ذاع صيته ، ودوت شهرته ، وبدأ يقدم استعراضات ضخمة بدل الاسكتشات ، وشاركه فى تأليفها الأديب بديع خيرى . وجاء من الإسكندرية الموسيقى الناشئ سيد درويش وقام بتلحين الأغانى التى نالت رواجاً كبيراً .

وخلال عطلات الأسبوع قدمنى صديقى يوسف الريحانى إلى الموسيقار البارع « كميل شامبير » وكان أبرع عازف على النفير ، وترأس أوركسترا فرقة على الكسار التى نافست فرقة نجيب الريحانى وكانوا يتراشقون ويتحدى بعضهم بعضاً بعناوين المسرحيات.

احتل على الكسار مسرح كازينو دى بارى (وهو سينما القاهرة الآن) .

أقام المرحوم أستاذى محمود مراد الذى سبق وذكرت أنه كان مدرساً لى فى اللغة الإنكليزية بمدرسة الناصرية ومن هواة التمثيل ، حفلة نهارية قام ببطولتها صديقى مختار عثمان وإحسان كامل التى سبق وتحدثت عن مغامرتى معها . والتقينا جميعاً بحلوانى الكورسال .

ما إن شاهدتنى إحسان حتى حاولت ربط ما قطع بيننا من علاقة ، وظلت تحدثنى بالإشارة معتقدة أننى الأرمنى الأخرس ، فقهقه مختار وباح لها بالحقيقة ، وكانت فى صحبتها فتاة يونانية فقدمتها لى :

— صديقى العزيزة كليو.بى . .

— تشرفنا . .

.بهرتنى عيناها ولم أعر إحسان التفاتاً ، وجذبنى حسن كليو.بى ، فأردت التقرب منها ، لكنى لاقيت الفتور والإعراض التام ، ثم اعتذرت لاضطرارها إلى تركنا بداعى ارتباطها بموعد سابق مع خطيبها .

نظرت إلىّ إحسان نظرة ساخرة فيها روح التشفى وهزت رأسها وصاحت :

— أصلها مخطوبة لأخو « ديموكانجوس » وبعد شهر حايتجوزها .

فما كان منى إلا أن تظاهرت بضرورة عودتى إلى المنزل تخلصاً من إحسان .

ففهم مختار مقصدى وخرجنا من الكورسال إلى إحدى دور السينما لقضاء السهرة .

الخواجا يوسف

كان والدى عضواً فى حزب سعد زغلول باشا (الوفد المصرى) ، وكان يقضى معظم سهراته فى منزل الزعيم بشارع الفلكى .

بعد خروجنا من السينما استأجرت عربة « حنطور » للعودة إلى المنزل .

وبينما كانت عربتى تخترق شارع الفلكى لمحت أبى واقفاً على ناصية الشارع مع سعد باشا وإبراهيم باشا سعيد ومعهم بعض رجال الحركة الوطنية . . فخشيت أن يكتشف أمرى أو يتعرف علىّ ، وفى الحال خلعت طربوشى ونكشت شعرى ، وطفقت أغنى أغنية يونانية مشهورة متظاهراً بأننى خواجا مخمور (شارب بالقرش كله) .

ما إن وصلت بى العربة إلى المنزل ، حتى هرولت صاعداً السلم وخلعت ثيابى

واندسست فى فراشى وقد ظننت أنى استطعت أن أخدع أبى .

بعد دقائق سمعت أبى يدندن نفس الأغنية اليونانية وهو يصعد الدرج ، ثم فتح باب غرفتى وصاح بى ساخراً :

— نمت قوام يا خواجا يوسف . . . ! !

* * *

من حسن الحظ أنه كان على أن أركب قطار الصباح المبكر للعودة لمشتهر. كما أن أبى كان قد صفح عنى لاندماجى فى الدراسة ونجاحى المتواصل فى امتحانات الانتقال وكان ترتيبى دائماً الأول . .أو بصراحة . . لم يكن هناك فضل فى هذا إلا للذاكرتى الفوتوغرافية . فقد كنت أقضى العام الدراسى فى نظم الزجل والألحان والألعاب الرياضية حتى إذا ما اقترب موعد الامتحان أستوعب كل المواد بعد قراءتها مرة أو مرتين على الأكثر .

وكانت كليو.بى لا تفارق ذاكرتى ، فوجدت أن خير علاج لى هو الانكباب على الدرس . . واختصرت زياراتى للقاهرة ، وكنت أكتفى باصطحاب بعض الزملاء الذين كانوا يستضيفوننى خلال زياراتهم لقراهم الريفية الهادئة . حيث كنا نقضى وقتاً ممتعاً ونركب الخيول ونتسلى بصيد الطيور .

جاءتنى رسالة من مختار عثمان ينبئنى فيها بأن النادى الأهلى يبحث عنى وسوف يقيم حفلته السنوية المعتادة ويريد أن أشترك فيها ، وكان هذا إغراء لم أستطع مقاومته ، فنزلت إلى القاهرة . . وإذا بالحفلة الكبرى تحت رعاية السلطان حسين كامل الذى حضر الحفلة ، ووصلتنى فى اليوم التالى هدية تقدير بعث بها « عظمة السلطان » إلى النادى الأهلى باسمى . .وغمرتنى الفرحة ، وهنأنى أعضاء النادى بهذا النجاح . إنسان واحد أظهر لى امتعاضه واستياءه هو والدى . ولكى يثير فىّ الآمال الكبار ،

ويبعدنى عن ميدان الفن وعدنى عند حصولى على الدبلوم أن يبعث بى إلى أوربا كأشقائى لألتحق بالجامعات والمعاهد العليا .

* * *

فى إحدى العطلات الأسبوعية وأنا أتسامر مع مختار بحلوانى الكورسال ، فوجئت بحضور « كليوبى » مع خواجا لم أشك أنه خطيبها . وكانت صدمتى قاسية لأن كليوبى تجاهلتنى تجاهلا تامًّا .

فى اليوم التالى عدت إلى مدرسة الزراعة كئيباً مطعوناً فى كبريائى ، وصورة كليوبى لا تفارق خاطرى . ولاحظ زملائى الطلبة — وأحدهم يدعى « شمروخ عمران » وكان من أسرة عريقة فى قنا ، والزميل محمد فوزى وكان من أبناء الوجه البحرى ومن أكبر أسراتها — اكتئابى وانزوائى وصمتى الذى لم يعتادوه ، وعدم اشتراكى معهم فى « الهزار والتنكيت » .

أبدى شمروخ عمران اندهاشه لعدم مشاركتى الزملاء المرح .

أخذنى على حدة وانفرد بى وألح فى سؤاله ليعرف ما حل بى ، وكنت أثق فيه كل الثقة ، فقد اكتملت فيه نخوة أهل الصعيد . وبعد إلحاح ووعد منه بكتمان سرى وبذل العون لى ، فتحت له قلبى وبحت له بغرامى وجرح قلبى .

صمت برهة ثم ابتسم ابتسامة عريضة .

كان شمروخ يكبرنى بخمسة عشر عاماً وكانت له زوجتان فى الصعيد .

— بس كده يا بو حجاج . . بسيطة . . بكره حبيبتك اللى تقلانه عليك حاتجرى وراك وتترمى تحت رجليك . . اسمع وصدق أولا تصدق . . فى بلدتى شيخ وهبه الله قدرة خارقة على ربط القلوب ، وإخضاع المحبوب ، وفى وسعه أن يكسر شوكة أشد النساء عناداً ومراساً . حدث أن كانت هناك فتاة رفضت الزواج من شيخ

مسن برغم ثرائه الفاحش ، وبرغم إلحاح أهلها عليها ورغبتهم فى إتمام هذا الزواج بشتى الطرق . . وفى بضعة أيام وبقدرة قادر ، وبواسطة الشيخ ، سعت الفتاة العنيدة على قدميها إلى الرجل الثرى خاضعة ذليلة تتوسل إلى الرجل الذى رفضته أن يرضى بها زوجة !

ظل شمروخ عمران يقص على القصة بعد القصة ليقنعنى بموهبة هذا الساحر القدير فى نظره .

وقبل أن أحكى للقارئ المغامرة أو الحادثة التى غيرت مجرى حياتى أود أن أؤكد له تأكيداً قاطعاً أننى – بالرغم من إيمانى بما يمنحه الله من مواهب لمن يصطفيهم من خلقه – لا أومن بفعل السحر ولا بالشعوذة ولا تسخير الجن لنيل المطالب وسائر ما نسمعه من ألاعيب الدجالين والمشعوذين .

لكن ما سأرويه للقارئ حدث – بدون تعليق منى أو مغالاة – آملا ألا يرمينى أحد بتهمة نشر الخزعبلات والدعاية لها .

عندما انتهى الزميل شمروخ عمران من قصة ذلك الشيخ الذى يربط القلوب ويخضع العاصى . . خطرت لى فكرة كانت انتقامية بحتة ، فلربما أستطيع إخضاع كليوبى التى أهدرت كرامتى ، ثم ما الذى أخسره إذا ما جربت ، وبخاصة أننى كنت متأثراً بما شاهدته من قبل كما ذكرت للقارئ من خوارق الشيخ سليم الطحطاوى ، والتجربة بالنسبة لى مثيرة على أى حال .

لكن الزميل عمران اشترط لتحقيق مطلبى أن أعطيه اسم الحبيبة واسم أبيها وأمها وشيئاً تملكه (هو « الأتر » كما يعرف بالعامية) كخصلة من شعرها أو بما يعلق بمشطها من شعر وخلافه ، أو منديل مستعمل ، أو قطعة قماش من ملابسها التى لامست بدنها ولم تغسل ، ولكن كيف السبيل إلى الحصول على مثل هذه

الأشياء الخاصة ، وليس بينى وبين الفتاة علاقة أو رابطة؟ وقد ذكرنى هذا بالمشعوذين الذين يطلبون من قاصديهم لنيل المآرب ، فرخة سوداء لها غرة بيضاء أو ديكاً ذا خمس أصابع ! !

شقيق كليوبى المفلس يعاوننى

خلال زيارتى التالية للقاهرة حانت لى الفرصة يوماً وابتسم الحظ ، فبينما أنا ومختار عثمان جالسان نتسامر مع صديقنا يوسف الريحانى ، وكنت أعرض عليه نص استعراض مسرحى ليقدمه لأخيه نجيب ، إذ حضر شاب فحياه ثم مال عليه وأسرّ فى أذنه بضع كلمات ، فأخرج يوسف الريحانى من جيب سترته ريالا فضياً ودسه فى جيب الشاب الذى فارقنا مسرعاً ، وقال يوسف ممتعضاً : « الولد ده كل ما يقابلنى يطلب فلوس » سأله مختار : « مين ده ؟ » فأجاب يوسف :

ــ أخو كليوبى ، ده مغلب أخته مع أنه كهربائى شاطر لكن متعطل معظم الوقت لأن إيده طويلة ، وكل ما يشتغل فى محل يسرق مخدومه .

قلت فى سرى هذه هى ضالتى المنشودة ، وسألته بلهفة : « وأين كليوبى ؟ »

ــ فى صحبة خطيبها ومابتجيش التياترو .

لم أشأ أن تضيع على الفرصة الذهبية ، واعترفت له بولهى بكليوبى ورغبتى الجياشة فى استمالتها إلى ، وما طلبه منى صديقى شمروخ عمران .

ــ بسيطة يابو حجاج نتفق مع شقيقها « كرياكو » لاستحضار ما يلزمك واسم أمها ووالدها وقرمة جدها . ثم قهقه ضاحكاً .

ــ وهل يقبل كرياكو ؟

ــ طبعاً بالفلوس ، دينه وإيمانه الفلوس ، سيبلى المسألة دى بس يعنى كلام

فى سرك دى أمور مامنهاش فايدة .

ووعدنى بتحقيق رغبتى فى اليوم التالى الذى حددناه لعرض نص الاستعراض الذى كتبته لشقيقه نجيب . وعدت إلى المنزل وقلبى ملآن بالآمال . . أسرعت إلى غرفتى الخاصة بسلاملك المنزل التى كانت تطل على الحارة لأعمل « رتوشاً » أخيرة لنص الاستعراض المسرحى ، فإذا بنافذة تفتح فى المنزل المواجه ، وبثلاث فتيات تحت الدش فى حمام يتضاحكن عاريات ، وكن من أسرة شركسية . أخذت – بهذا (التابلوه) الجنسى المثير . . ثلاث عذارى عرايا تحت الدش ! وأطفأت نور غرفتى وأسرعت إلى النافذة لأستمتع (وأشبرق) عينى وهن يمعن فى إثارتى ؛ وإذا بنور غرفتى يضاء ، والتفت . . كان أبى ، تقدم من النافذة وهاله ما رأى ، فأسمعهن كلاماً قاسياً ، لكننى لاحظت أنه مثلى قد أخذ بروعة ما يراه ، وظننته سينهال علىّ صفعاً ، وإذا به وقد احمرت وجنتاه ، يتمتم قائلا : « معذور يا ابنى ، دا منظر ياخد العقل ، بكره حاقول لأبوهم . . يالله يا حبيبى نام » . فتظاهرت بالخجل وأجبته : « أيوه والنبى يابابا دى قلة حيا . . حاجة تكسف » . فدفعنى فى ظهرى ضاحكاً وقال : « لايمها بقى . . دول لازم متعودين معاك على كده ، من بكره على مدرستك ، فاضل لك كام شهر وتاخد الدبلوم وبعدها أسفرك أوربا » .

فى اليوم التالى التقيت بيوسف الريحانى حسب الموعد ، وذهبنا لمقابلة الفنان نجيب ، وكان يسكن فى شقة مع حبيبته الفرنسية بطلة الاستعراض فوق المسرح مباشرة . . لطعنا فى غرفة الانتظار ساعتين ، ثم دخل منتفخ العينين يتثاءب ، وحيانا . وبدأت أقرأ له نص الاستعراض ، وقبل أن تمضى عشر دقائق ، قام معتذراً بحجة أنه متعب ، وتركنا ، وخرجت أنا وشقيقه يوسف (وقفايا يقمر عيش) !

ذكرت هذه الواقعة لأنه بعد عدة سنوات ، عندما أطاح مسرح رمسيس بفرقة

سيد الفكاهة نجيب . . وزارني بمدينة رمسيس التي سيأتي ذكرها ، وعرضت عليه على سبيل الدعابة فكرة استعراضي القديم ، أظهر إعجابه الشديد ، نضحكت لأنني كنت قد أدركت أن الشهرة لها سلطانها وتأثيرها .

نعود إلى كرياكو شقيق كليوبي ، الذى حضر إلى القهوة ، وأنقده يوسف الريحاني جنيهاً وأخذ منه لفة سلمها إلىّ .

ـــ اتفضل يا بو حجاج اللي أنت عايزه ، غالي والطلب رخيص .

فرحت فرحة عارمة ، وفى اليوم التالى كنت فى مشتهر وسلمت اللفافة إلى شمروخ عمران ، فقال : «أبشر ياعم» .

وجاءت إجازة نصف السنة وسافرت لأقضيها فى القاهرة ، وقل اهتمامى بكليوبى واكتفيت بمراقبة حمام الفتيات الثلاث العاريات ، واستطعت أن أوطد علاقتى بأصغرهن ، وأنستني هذه العلاقة الجديدة كليوبى ، والمثل الفرنسي يقول « مسمار يطلّع مسمار » !

الحجاب الصغير

انتهت العطلة وعدت إلى منفاى ، والتقيت بالأخ عمران الذى أخرج من جيبه حجاباً وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة :

ـــ خذ . أهو دا اللي حايجيب لك السبع من ديله !

ـــ إيه ده ؟

ـــ « العمل » اللي وعدتك بيه . . بس اوعى تحط الحجاب دا فى جيبك دلوقت استنى لما تروح مصر . . بعدين البنت تتجنن . . والله بيضالك فى القفص !

وما إن وصلت إلى القاهرة حتى أخبرني أحد الخدم أن سيدة سألت عنى مراراً

فى التليفون ، فلم أعر الأمر اهتماماً .

التقيت بوالدى فوجدته متجهماً .

— مين البنت دى اللى سألت عنك عشرين مرة فى التليفون ؟

— ما اعرفش يا بابا .

— إزاى ماتعرفش . . دنا رديت عليها بنفسى ، باين عليها خوجايه . والله عال إحنا ماصدقنا إنك انتظمت فى الدراسة وقربت تاخد الدبلوم ؟

— يا بابا أحلف لك . .

وقبل أن أتم جملتى دق جرس التليفون ، فأمسك أبى بالسماعة وأنصت لحظة ثم نظر إلى شذراً :

— انتِ مين ؟.. انت اسمك إيه ؟ . . والتفت نحوى متحدياً . . .

— مش عايزه ، تقول اسمها إيه .. اتفضل رد . . رد باقول لك .

تقدمت مرتبكاً وأمسكت السماعة :

— ألو . . .مين ؟

— يوسف ؟! أنا كليوبى . . مختار اداني النمرة . . سألت عنك عشرين مرة . . يا حبيبى يا روحى . . أنا باحبك .

كنت فى موقف لا أحسد عليه ، مقيد الإرادة . . فلم أستطع أن أرد ، فاستطردت تقول :

— يوسف ، أنا مستنياك النهارده مع إحسان فى حلوانى الكورسال الساعة ٦ .

أعدت السماعة إلى مكانها وحاولت التسلل فأوقفنى أبى .

— عرفتها تبقى مين ؟

— دى .. دى . .بتكلمنى كلام ماهواش عربى . .دى باين عليها خوجايه غلطانه فى النمرة .

ـ غلطانه إزاى ؟ !.. دى بتسأل عنلك كل يوم وانت غايب !

ـ أنا مش عادتى تكلمنى ستات . .يمكن مقلب ولا ملا عوب من واحد رزل ، عايز يخلق لى سوء تفاهم .

ـ إنت حيرتنى يا يوسف . .تسكت تسكت وكل سنة تطلع لنا بحاجة .. !

ـ حاجة إيه يا بابا . . هو معقول أخلّى واحدة تطلبنى فى التليفون وأنا غايب. . دى لازم من البنات اللى بيعاكسوا فى التليفونات . .

ـ جايز يا يوسف . .خد بالك . . أنا حاسفرك أوربا زى اخواتك .

ـ الحقيقة يابابا. . دى لازم من معارف زميلى مختار عثمان ، كان قال لى مرة إن فيه بنت خوجايه بتطارده .

والدى ينذرنى !

كان أبى صديقاً لأسرة مختار وبخاصة لعمه محمود باشا سليمان عين أعيان الصعيد ووالد محمد باشا محمود (الذى ترأس الوزارة فيما بعد) .

أجاب أبى محتدًّا : « قول لصديقك يقطع علاقته بالبنت دى والا أطلعت عمه على الحكاية.. وعمه شديد جدًّا . . » ، ثم تركنى وانصرف.. وبادرت بالذهاب إلى حلوانى الكورسال نشوان ، وفرحة الانتصار تغمرنى . . كانت كليوبى بانتظارى ، وما إن اقتربت منها حتى هبت واقفة وتلفتت يميناً ويساراً وهمست . . « خد عربية أجرة واستنانى على ناصية شارع جلال قوام قبل ماحدّ يشوفنا » .

رائحة النرجس تفوح منها

سارت بنا العربة وقد نبهت كليوبى الحوذى أن ينزل « الكابوت» ويختار الشوارع غير المطروقة حتى نجتاز حى الأضواء . .وأمسكت بيدى وجسدها كله

يرتجف وعيناها تكادان تلتهمانى .. كانت رائحة النرسيس (النرجس) تفوح من باقة صغيرة تزين جاكت تاييرها الأنيق . وفى الجزيرة القديمة (الروضة) أوقفنا العربة وجلسنا على ضفاف النيل .

مضت ساعتان .. وهى تصف لى مشاعرها الجارفة .. أفهمتنى أنها كانت تتحاشانى مخافة إغضاب صديقتها الحميمة إحسان ، وعبثاً حاولت مقاومة شعورها الفياض نحوى ، وقالت إنها على استعداد لعدم الاقتران بخطيبها « كانجوس » ، وإنها صارحته فى آخر لحظة ، حين كان يهيئ معدات العرس ، بأنها لم تكن تحبه حبًّا صادقاً ، ولم تكن ترغب فى الاقتران به إلا استجابة لأمها التى أغرتها ثروته ، بعد أن ذاقت طويلا شظف العيش وقسوة الحرمان والعوز .

عدنا إلى حارة جلال وهى بين أحضانى .. وعند الفراق لم أجد بدًّا من أن أبوح لها بأنى مازلت طالباً . وأنه يتحتم على السفر فى الغد فأجابت :

— عارفه . إحسان قالت لى كل حاجة . حاستناك كل جمعة يا حبيبى .

لما عدت إلى مدرستى ادعيت لصديقى شمروخ عمران أن الحجاب لم ينفع فقال :

— يعنى الشيخ استغفلنى وضحك على دقنى ؟! أنا حاورى له شغله .

أول حب صادق مدمر

مضى أسبوع الدراسة وأنا أعد الساعات بل الدقائق ، وأعيش فى عالم الأرق واللوعة . كنت غائباً بوجدانى حاضراً بجسدى ، فلم أستوعب كلمة من محاضرات الأساتذة ودروسهم .

ومرة أخرى هأنذا مع كليوبى نشوان لا كنشوة الخمر بل كالنشوة التى يشعر بها الناسك عندما يقضى الليل فى معبد متقرباً من السماء !

أيقنت فى أعماق نفسى أن حبى لكليوبى هو أول حب صادق، وأن مغامراتى السابقة لم تكن سوى اندفاعات طائشة .

صارحتنى كليوبى بأنه يتحتم عليها الانتقال من مسكنها إلى آخر بعيداً عن الشبهات وأعين « العذال » والرقباء .

كانت تحتل شقة صغيرة مع والدتها وشقيقها ، استأجرها لها خطيبها فى عمارة « دلبانى » خلف مسرح الكورسال القديم . وأبدت مخاوفها من خطيبها السابق الذى ظل يلاحقها ، وأرادت أن تبعد الخطر عنى ، إذ ليس من المستبعد أن يكتشف « كانجوس » سر علاقتنا ، فيلحق بى الأذى ، وكانت مصر فى تلك الأيام ترزح تحت سيطرة الامتيازات الأجنبية ، فلا يحاكم أجنبى إلا أمام قضاة قنصليته المتحيزين المغرضين . وكثيراً ما أهدرت دماء مصرية بدون عقاب !

كانت ماليتى محدودة جداً ، ومواردى من الحفلات غير أكيدة ، وكنت لا أعتمد إلا على مصروفى الشهرى المتواضع الذى خصصه بى والدى .

وكل هذا فى جملته غير كاف للإنفاق عليها وعلى أسرتها بضعة أيام . وقالت لى كليوبى :

— سأبيع مصوغاتى واثاث مسكنى ، وتكفينى حجرة تجمعنى بك يا حبيبى .

— لكننى يا كليوبى فى السنة الأخيرة من الدراسة ، ويتحتم على أن أكون بعيداً عنك طوال أيام الأسبوع .

— لا يهم . سأنتظرك حتى تنال الدبلوم ، ويكفينى زيارتك فى العطلات ، وأنا يهمنى أن تنال الشهادة العليا وتصبح حرًّا قادراً على الكسب ، وسأختفى عن جميع الناس .

إن المحب لا يعقل ولا يحسب للعواقب حساباً ، وإن كان ما يراه سراباً ، فبحر الشيطان لا ماء فيه !

أسرق الزبدة والعسل من مئونة أهلى !

فى اليوم التالى وفقت إلى العثور على غرفتين متواضعتين بمنافعهما فى شارع قصر العينى ، ولا يبعد المكان عن منزلنا بحى المنيرة إلا بضع خطوات ، وكان إيجارها الشهرى ١٦٠ قرشاً ، فاستأجرتهما ووقعت عقداً ودفعت شهرين مقدماً ، وليكن ما يكون . وقبل مغادرتى القاهرة أعطيتها عنوان مسكنها الجديد على أن تتولى هى نقل « عزالها » إلى عش الغرام . إلا أن كرياكو اللعين شقيق كليوبى ، وقد عرف ما اعتزمت عليه شقيقته ، وطمعاً بأن ينال الحظوة من كانجوس خطيبها ، بادر بإطلاعه على السر ، فذهب الأخير محاولا استرضاءها . ولما واجهته بالرفض ثار وطالبها بما أهداه لها من مصوغات وأثاث ، فقذفت بهداياه فى وجهه وأخذت ما كان لها من أثاث قديم عديم القيمة . وانتقلت إلى مسكننا المتواضع بحى المنيرة ، ومكننى هذا من زيارتها وقتما أشاء .

ومضى الحال على هذا المنوال مدة شهرين ، وقد دبرت حيلة لعدم اكتشاف

غيابي عن بيت الأسرة ، فكنت أعود ليلا وأدخل غرفتي ، وعندما أطمئن أن الكل يستغرق في النوم أغطي وسادة فراشي باللحاف لأخدع الناظر إليه أني نائم في سريري .

ولكي أوفر على كليوبي النفقات كنت أزور في ظلام الليل « الكرار » في منزلنا وأغترف من أوعية الزبدة مايملأ صفيحة صغيرة ، وأملأ كوزاً صغيراً من الأرز ، وأتزود ببعض « البرطمانات » من المربي أو العسل وأحشو جيوبي بالسكر . وهيهات أن يفطن أحد إلى ما « أقتبسه » لوفرة المئونة وتكدسها . . وكانت وصفية التركية شقيقة خيرية خير عون لي ، وكثيراً ما أنقذتني من اكتشاف غيبتي خارج المنزل .

كليوبي تحمل سفاحاً والبوليس يبحث عني !

وقبل سفري في كل يوم سبت أهب عند شروق الشمس فأخفي ما سلبت داخل حقيبة سفري الصغيرة ثم أذهب أفرغها عند كليوبي التي كانت لا تغادر مسكنها إطلاقاً . . . والله على عبيده ستار .

ولكن الأقدار كانت لي بالمرصاد . . لقد عرفت . من كليوبي أنها حامل ، فطار صوابي . ياهول الصاعقة التي انقضت على رأسي ! . . وما الذي يحدث لو عرف أبي ؟

أسقط في يدي وكأن مطرقة من السنديان تنهال على ناصيتي ، كيف لم أفكر في هذا من قبل ؟ . . ابن . . أو ابنة لي من الحرام ! ! وأنا في هذا العمر ؟

أسرعت إلى يوسف الريحاني وأفضيت إليه بهذا السر الرهيب فسرح قليلا وقال :

ـــ سيبني أفكر . قابلني الليلة في قهوة الفن .

وهمت على وجهى فى الشوارع ولم أفكر فى العودة إلى منزل كليوبى ، وشعرت كأنها قد ارتكبت جرماً . كنت أواجه محنة قاسية !

التقيت بيوسف الريحانى فى الليلة نفسها ، وكان عند حسن ظنى ، فقد لاقانى بشوشاً باسماً ، وبادرنى بقوله :

— فيه دكتور قبرصى فى ميدان العتبة الخضرا ، وهو موضع ثقة ، وجراح قدير .

— وما حاجتى إليه ؟

— كى . . ألا تفهم ما أعنى ؟ الحل الوحيد هو أن تجرى لها عملية إجهاض .

— عملية إجهاض ؟

— لا تنتظر كثيراً ، فكلما مر الوقت تعذرت العملية الجراحية وأصبحت خطراً. لا يلزم لإجراء العملية أكثر من خمسة جنيهات أتعاب الدكتور . . سوف نتقابل عند عودتك فى الأسبوع المقبل .

رجعت إلى مسكن كليوبى فوجدتها تتألم وتشكو من خراج ظهر فى أصبع قدمها ، فزاد الطين بلة .

وكان يجب على أن أسدد قيمة إيجار المسكن ، فكيف السبيل إلى مواجهة كل هذه النفقات ؟ . . مصاريف العلاج والعملية الجراحية الضرورية للتخلص من العواقب الوخيمة ؟ أملت خيراً من زملائى فى المعهد الزراعى وجعلت كل اعتمادى على عون صديق ثرى توسمت فيه نخوة وأيقنت أنه سوف يعاوننى للنجاة من هذه الورطة ، وكانت كلمات يوسف الريحانى تطاردنى : « كلما تأخرنا تعذرت العملية » .

كدت أفقد صوابى ! لا بد لى من الحصول على المال . .

وأول ساعة وصلت فيها إلى المعهد استنجدت بصديقى واثقاً أنه لن يخيب رجائى ، وكان يدعى فوزى ، لكنه على خلاف ما انتظرت اعتذر بأعذار واهية لم تقنعنى فحقدت عليه !

وبينما كنت أضرب أخماساً فى أسداس ، وقعت عيناى على ساعة فوزى الذهبية وقد تركها بجوار فراشه فى عنبر النوم الذى كان يجمعنا .

وجدت الفرصة سانحة ، فقد ذهب فوزى ليغتسل فى دورة المياه ، والمضطر يركب الصعب فى الأمور بدون اكتراث للعواقب ، ووسوس لى الشيطان ارتكاب جريمة السرقة .

عميت بصيرتى تماماً ، ولأول مرة فى حياتى مددت يدى لأسرق ، إلا أن الموت كان فى تلك اللحظة أهون علىّ من التراخى فى إنقاذ موقفى ، وقد أوصدت أمام وجهى الأبواب .

ضابط بوليس ومخبر يسألان عنى !

اختطفت الساعة الذهبية وارتديت ملابس المدينة ، وبدون تصريح غادرت المعهد واستأجرت دابة إلى بلدة طوخ حيث ركبت القطار إلى القاهرة . وبمجرد وصولى قصدت إلى حى الموسكى وبعت الساعة الذهبية كما قدر قيمتها تاجر الساعات اليهودى بثمن بخس . . . ستة جنيهات فقط !

كتمت عن كليوبى عملية الإجهاض ، ولشدة ما كانت تعانيه من آلام الجراح اضطررت أن أحملها حملا على ذراعى ، وأخذتها إلى عيادة الطبيب الجراح . وصعدت الدرج حاملا إياها . . ست طبقات وهى على كتفى !

وتمت العملية الجراحية ، وفتح « الخراج» ! ومرة أخرى حملتها وهى فى حالة إغماء وعدت بها وقلبى واجف إلى العش الصغير . وأسرعت إلى مختار لأقترض منه جنيهين ، وكان هذا المبلغ كل ما معه .

وبينما أنا عنده ، دق باب مسكنه فذهب مختار يستطلع الأمر ثم عاد ووجهه أصفر وصاح :

– ضابط بوليس ومعه مخبر من رجال الشرطة يسأل عنك !

– ضابط بوليس ورجال تحرى ! كيف اكتشفوا مكانى ؟

اشتد طرق الباب بعنف ، وغاض ماء وجهى ، ولم يمهلونى لحظة ، فقد اقتحموا الغرفة كجيش يهاجم حصناً ، ولمحت وراءهم الطالب فوزى صاحب الساعة وتستر خلفه زميل يدعى فؤاد .

جابهنى الضابط بتهمة السرقة ، فلم أنكر ولم أراوغ ، وبعد حديث قصير مقتضب عرفت من الضابط أن الطالب فؤاد أكد لفوزى أن فى مقدوره أن يجد ساعته الضائعة معى ، فأنا الوحيد بين الطلاب الذى كان فراشه يجاور فراشى فى العنبر ، كما أننى الوحيد الذى سارع إلى السفر بغتة وبلا استئذان .

وقال فؤاد إنه أقنع فوزى بضرورة الإسراع قبل أن أتصرف بالساعة .

اعترفت بالحقيقة عارية ، فلم أكن لصًّا ، بل هى ضرورة ملحة ألجأتنى إلى هذا الخطأ المشين !

أشفق فوزى علىّ ، وبدا على محياه الطيب الندم والأسف لاتهامى ، فتنازل عن بلاغه وانصرف رجال الشرطة .

وعدت فوزى باسترداد الساعة ، وصدق فيه قول الشاعر :

إنى لهُ عن دمى المسفوك معتذرٌ
أقـــول . حملته فى سفكه تعبا

وألقى فوزى بتبعة ملاحقتى على فؤاد ، وأنبه على حماقته : وطيب خاطرى ، وهوّن الخطب على ، فخطيئتى قد غفرت . وأمن فوزى بأن الندم كان يعصر قلبى ووعدنى بكتمان الأمر ، كما حذر فؤاداً تحذيراً شديداً بعدم إباحة السّر مراعاة للظروف وحرصاً على مستقبلى وسمعتى ، وبخاصة أن امتحان الدبلوم أصبح وشيكا . وارتحت بعض الشىء وقطعت على نفسى عهداً برد قيمة الساعة حسبما يقدرها ، لكن إحساساً خفيًّا غامضاً فى أعماقى كان يقلقنى .

عدت إلى منزل أسرتى منهاراً تتراقص جريمتى فى مخيلتى فتطفىء أضواء قلبى . قابلتنى أمى بحنان ووجه باسم ، فسرى عنى بعض الشىء .

وفى الفجر ذهبت كعادتى إلى مسكن كليوبى ، وكانت تذرف الدمع الغزير على فقد وليدها ، فضممتها إلى أحضانى أهدهدها وأخفف من لوعتها . . . وأمضيت النهار بطوله .

ورجعت إلى منزلى وقد خفف لقائى لكليوبى كربى ، وقد كتمت عنها الواقعة بكاملها .

يالص ! ياحرامى ! يا كلب !!

وفى اليوم التالى أفقت على صوت والدى يهدر :

ــ أين يوسف ؟ أين يوسف ؟ وسمعت والدتى تجيبه : « فى غرفته لسه نايم ، ما لك ياباشا ؟ خير .. جرى حاجه؟» . وحاول أبى أن يفتح الباب الذى كنت أوصده

بالمفتاح كعادتى ، حرصاً على ألا يكتشف أحد قضائى الليل خارج البيت .

حاول أبى تحطيم الباب وهو يزمجر : « يالص . . . ياحرامى . . ياكلب! »

دار بخاطرى أن ألقى بنفسى من النافذة ، إذ أحسست هبوب العاصفة ! وتحطم الباب واندفعت فاقداً رشدى من شدة الخوف ، لأقذف بنفسى إلى الهاوية. فلحق بى أبى وخلفه والدتى مرتجفة :

ـــ أنت ابن عبد الله وهبى حرامى ! تسرق ساعة ؟

شهقت والدتى :

ـــ يسرق ساعة ؟

ثم ألقت بنفسها تحول بينه وبينى فى حين كان يهدر :

ـــ سيبينى أقتله . .

ـــ حلمك ياباشا ، مين اللى قالك كده ؟

ـــ ناظر المدرسة . . اتصل بى دلوقت بالتليفون .

ـــ مش ممكن . . يوسف . . رد يا يوسف .

انفجرت باكياً ووقعت على قدميه مستغفراً ، فانقض على يشبعنى ركلا ولطماً ، وأمى الحبيبة تمسك بتلابيبه ، وتتلقى الضربات عنى ، ضارعة إليه ألا يصيبنى بأذى. وبعد جهد استطاعت أن تقصيه عنى . أما أنا فقد اندفعت جارياً أهبط السلالم كالمجنون ، وقد أذلنى الخجل . وركضت كمن يحاول النجاة من أسد هائج يهاجمه . إلى منزل كليوبى ، وما إن وصلت حتى تهاويت كبناء يتهدم .

استعدت وعيى على نداء كليوبى المتفجع ، وبحت لها بكل ما وقع ، فشاطرتنى النكبة ، وأصرت أن تلقى بتبعة كل ما حدث على كاهلها . أما بالنسبة إلى فالأمر جلل خطير ، ومن المحال أن أعود إلى منزلنا ، بل يجب أن أمحو اسمى من قائمة أفرادها بعد أن لطخت لقب عائلة وهبى العريقة بالعار !

فكرت أن أترك البيت

كنت واثقاً من أن والدى سيتنكر لى إلى الأبد .

وفى الثانية بعد منتصف الليل ، تسللت كلص إلى بيتنا لأجمع ما أستطيعه من حوائجى وثيابى . وبينما أنا فى غرفتى أملأ حقيبتى فى الظلام أضىء النور .. وهاهى ذى والدتى أمامى :

ــ يوسف ، ابنى حبيبى !

ــ ماما . .

ــ بتعمل إيه ؟

ــ خلاص ، ماليش عيش هنا .

تقدمت نحوى وأمسكت براحتيها وجهى وأمطرتنى قبلات :

ــ أنت بتقول إيه يا ابنى ؟

ــ لا . . أنا مش ابنكم . اتبرءوا منى . أنا وسخت اسم العيلة . . أنا أستاهل . . أستاهل . .

ــ ليه عملت كده يا يوسف ؟ انت عمرك . .

فقاطعتها :

ــ سامحينى يا ماما ، سامحينى .

ــ طيب بس اهدا وروق دمك . واللى انكسر يتصلح . .

ــ مش ممكن . . مش ممكن . وبابا . بابا !

ــ بابا كان زعلان قوى منك ، لكن أنا اترجيتو كثير لحد ما حن قلبه .

أبوك طيب وبيحبك .. أنت فاضلك شهرين وتاخد الدبلوم ، وكنت أول المدرسة .

ــ مش عارف يا ماما إزاى عملت كده . . وزّة شيطان .

ــ دى غلطة كبيرة صحيح ، لكن احنا ما يخلصناش ضياع مستقبلك .

ــ أنا مستقبلى ضاع خلاص وانتهى .

ــ لا . لا تيأس كده . . بابا اتفاهم مع ناظر المدرسة وحيسووا المسألة . ده الناظر قال لبابا : إنه بيعزك قوى وكان فخور بيك . إحنا حانديلك ثمن الساعة تديه لصاحبها .. بكره الصبح ترجع مدرستك وكأن اللى جرى ما كان .

وظلت أمى الحبيبة تواسينى وتهون الخطب على وتشجعنى وتتوسل إلىّ حتى رضخت فى النهاية .

شماتة زملاء المدرسة حولت أيامى جحيما !

وعند مطلع الشمس قمت ، فحملت حقيبتى . . وكانت أمى قد أمرت الحوذى بإعداد العربة ، وركبت القطار إلى معهد مشتهر ، وقد قطعت على نفسى عهداً أن أكفر عن خطيئتى بالانكباب على الدرس ، وأن أرد اعتبارى أمام الجميع ، بأن أكون أول دفعتى فى الدبلوم .

شىء واحد لم أحسب له حساباً هو سخرية الزملاء وشماتتهم فىّ ، ولا سيما أن أكثرهم من أنصاف المثقفين ، وضيقى العقل وقصيرى النظر ، أما الأحمق فأعمى البصيرة .

ما إن وطئت قدماى باب المدرسة حتى قوبلت بنظرات الازدراء الخبيثة والابتسامات الصفراء الجارحة .

وخلال أولى المحاضرات ، سألنى جارى ، وكان ممن أشبعهم نكاتاً على غباوتهم

وبلاهتهم ، والأبله أوالجاهل فى العادة نزاع إلى الأذى :

— الساعة كام دلوقت ؟

— .. .. ..

— باين إنها ساعة نحس .

بلعت النكتة الجارحة وتلميحه ، لكن ضحكات التهكم كانت كالسهام فى أذنى !

كتمت غيظى وانحنيت أمام العاصفة مصمماً أن أتحمل كل تورية مهما كانت جارحة أملا فى أن يغضوا النظر عن زلتى الأولى ، وأملت أن تنتصر الزمالة على عقدة التشفى المطبوعة عليها النفوس الضعيفة . وكم وددت أن أصيح فى وجوههم : « جلّ من لا يخطئ . . . وأنا أدرى بانحرافاتكم » .

وقد بذل فوزى جهداً محموداً كى يقضى على روح السخرية ، فادعى أن حادثة الساعة كانت مجرد مداعبة ، ونفى بشدة أنى تصرفت ببيعها واستوليت على ثمنها ، ولازمنى كظلى يتضاحك معى ويتمازح ، وداعبنى الأمل أن أسترد مكانتى المرموقة وكرامتى ، وإعجاب الزملاء الذين كانوا يسبغونه علىّ ، ويتباهون بى ، فالزمن كفيل بمحو أثر الأخطاء ، وقد قرب موعد امتحان الدبلوم فلأتذرع بالصبر وأغض الطرف ، وأصم أذنى ، وأتجاهل غمزات كل سفيه . لكن حقد فؤاد ، وما طبعت عليه نفسه من الميل إلى الإمعان فى الشر ، والكراهية الكامنة فى طبيعته الخبيثة ، كانت أسلحة وسهاماً مسمومة ، ظل يطعننى بها بلا رحمة ، ويؤجج النار كلما خمدت ، فجعل من أيامى جحيماً لا يطاق ، وانضم إليه بعض السفهاء ذوى النفوس المنهارة ، وكونوا أخطبوطاً متعدد الأذرع ليعصرنى عصراً والمثل العامى يقول :

« إذا وقعت البقرة كترت سكاكينها » .

الأستاذ يطلب مني عروساً !

كان أستاذ علم البساتين ، وهو فى عنفوان الشباب ، قد حدث بينى وبينه ذات مرة ما أثار حفيظته علىّ . إذ كان أعزبَ ، واصطفانى بصداقته ومودته ، ثم كشف لى يوماً عن رغبته فى اختيار شريكة لحياته من بنات الأسر الكريمة . ورجانى إن كان فى استطاعته إرشاده إلى عروس من بنات حى المنيرة الذى كنا نقطنه ، والذى كان سكانه من خيرة العائلات وأعرقها أصلا .

كنت قد عرفت فتاة رائعة الحسن تكثر من الوقوف أمام نافذة بيت أسرتها وتتسلى بالتطلع إلى ما يجرى فى الطريق . واعتدنا كجيران أن نتبادل التحية كلما مررت أمام بيتها .

وبنية صادقة ، ورغبة منى فى مساعدته ، اقترحت عليه أن يتحرى عن أسرتها عساه يجد فيها ضالته المنشودة ، فشكرنى بحرارة ، وأعطيته العنوان .

ذات ليلة ، وبينما أسير بمحاذاة منزل الفتاة فى طريقى إلى مسكن كليوبى ، بعد منتصف الليل ، لمحت غرفتها مضاءة ، وحانت منى التفاتة فإذا بالفتاة مستندة على حافة نافذة غرفتها المفضلة . .

كدت أواصل السير كعادتى ، لولا أنها نادتنى باسمى بصوت خافت ، فتوقفت مدهوشاً ، فهذه هى المرة الأولى التى أسمعها تنطق باسمى . أومأت إلىّ باسمة فاقتربت.

— انت بتروح على فين كل يوم خميس وجمعه بعد نص الليل ؟

— إيش عرفك ؟

— أنا باشوفك .

— أنت بتراقبينى ؟ وانت إيه اللى سهرك للساعة دى ؟

ــ عشان أشوفك ، يا ترى بتروح فين وترجع وش الفجر ؟

ــ كمان فى وش الفجر ! ليه ما بتناميش ؟

ــ ولا انت واخد بالك . . اللى واخد عقلك يتهنا به !

تضاحكنا ببراءة ، وقبل أن أودعها لمحت شخصاً يمر بجوارى ، فالتفت .. كان هو بعينه أستاذ علم البساتين !

رمانى بنظرة حادة ، وتمتم : « كده ؟ ! .. ما شاء الله !. . »

ثم أشاح بوجهه ، وتركنى أسبح فى عرقى !

سألتنى الفتاة :

ــ مين ده ، إنت تعرفه ؟

ــ أيوه .

ــ ده بقاله كم يوم يحوم حول البيت . وساعات يفضل واقف من بعيد لبعيد ، ويبص لى بعين تندب فيها رصاصة ، أروح قافلة الشباك فى وشه . . . ياسم !

وقعت هذه الحادثة من بضعة أشهر ، ولم يعاتبنى عليها الأستاذ ، غير أنه ولا شك حفظها لى فى نفسه ، وله العذر . . وإن كان بعض الظن إثم ، إذ لم يكن بينى وبين تلك الفتاة علاقة ، ثم وجد الأستاذ الفرصة سانحة مواتية للانتقام منى !

لم يعد يبادلنى التحية بعد الذى جرى .

الوزارة تطلب ملف التحقيق فى قضيتى

خلال ساعة التدريب العملى فى حقل البساتين ، دنا منى الأستاذ وراقبنى فترة ، ثم سألنى :

— بتعمل إيه ؟

— بسقى مشاتل القرنفل .

— ولك نفس . يا دملك يا أخى ! إنت ما عندكش إحساس ؟

— . . .

— بقا بعد عملتك السوده ، قادر تقعد فى المدرسة ؟ أنا لو كنت محلك كان أحسن تنكسر رجلى ولا أعتب بيها مشتهر تانى !

— لازم أدفع تمن غلطتى وأتحمل . باقى كام شهر على الدبلوم . .

— دبلوم إيه وزفت مسيح إيه ؟ دى الوزارة بعتت من كام يوم تطلب دوسيه التحقيق ، وأنا متأكد إنهم حيفصلوك قبل الامتحان .

— يفصلونى ؟ لكن بابا . .

— الحكاية ريحتها فاحت ، وزكمت الأنوف ، وأنا متأكد إنه فى ظرف أسبوع على الأكثر حيوصل لإدارة المدرسة أمر فصلك . أنا سمعت ناظر المدرسة بيقول كده . نصيحة لوجه الله ، وفر على نفسك الكسوف وزفت الطرد . لملم هدومك وروح على بيتكم !

لم ينتظر جوابى وانصرف لمراقبة غيرى من الطلبة بعد أن أصاب منى مقتلا . صدقت نذيره بلا روية ولا تردد ، وتخيلت المهانة الساحقة وأنا أعلن رسمياً بقرار فصلى ، ونظرات الاحتقار التى سيشيعنى بها رفاقى ، وأنا أجر أذيالى أمامهم ذليلا مطروداً .

ولم يمض النهار حتى كنت قد جمعت أمتعتى وكتبى فى حقيبتى ، وانتهزت فرصة انشغال الجميع فى فترة تناول وجبة العشاء وتسللت خارجاً ، وقطعت الطريق الطويل الشاق من المدرسة حتى مركز طوخ سعياً على القدمين ، كأنما أحمل نعشى

فوق ظهرى ، وانتظرت وقتاً طويلا خيل إلى أنه دهر ، حتى وصل القطار لأركبه نحوالمجهول ووهج اللظى يكاد يمزق غشاء مستقبلى القاتم .

لم يدر بخلدى أو يخطر ببالى أن أقصد منزلنا ، إذ قد اعتبرت نفسى طريداً شريداً لا أسرة لى ولا ملجأ بعد اليوم ، ما دام فصلى من المعهد أصبح وشيكاً . وسوف ينفجر مرجل غضب والدى علىّ ! وهيهات أن أنشد حماية أمى أو أتوقع أن تنفعنى شفاعتها لدى والدى .

إنه لن يغفر لى ، وستكون وطأة طردى كوصمة مسيئة إلى مكانته الاجتماعية . وويل لمن يجرح هذه المكانة السامية ، ويلطخ اسمه النظيف ، وأنا أعرف الناس وأدراهم بكبريائه ، فقد انهال يوماً بالضرب على مفتش بريطانى ، إذ تخيل أنه لم يوفه حقه من الاحترام ، وأغلظ فى القول مرة للأمير فؤاد قبل أن يتوج ملكاً ، لأنه تجرأ ودعاه إلى حفلة ماجنة فى باريس . كانت تلك الليلة أرهب من يوم الحشر ، وأردت أن أتحاشى الحساب العسير . فلجأت إلى منزل كليوبى وأبلغتها اعتزامى الابتعاد عن عائلتى برغم يقينى بأننى سأتعرض للمتاعب وأرتمى فى أحضان الفاقة . . ولأتركن سفينتى تعصف بها الرياح فتتحطم بين عباب الأنواء الهادرة .

وأنذرتها بأننا سوف نتعرض لما قد لا تطيق تحمله ، فأظهرت وفاء وجلداً . . . ولتكن مشيئة الله .

قلب أبى لن يلينه حتى هبوط الملائكة من السماء !

وبينما نحن نغوص فى الهموم ، حمل النسيم إلى أسماعنا أصداء ترنيمة بعيدة :

تحيرت والرحمن لا شك فى أمرى
وحلت بى الأكدار من حيث لا أدرى

وبرغم رخامة الصوت ، وقع فى آذاننا كنعيق بوم ، أو عواء ذئب جائع ، وكانت الأغنية تنطبق على ما نعانيه من كرب وقلق .

فبعد أن أنعمت النظر والتفكير ، أيقنت أن الشقاء كان معنا على موعد . فلو أن الملائكة تهبط من السماء العليا لتلين قلب والدى وتناشده المغفرة ، فسيكون مصيرى المحتوم هو النفى والترحال إلى مزرعة أبى لأختبئ فيها كما يلجأ البرص ومرضى الجذام إلى المغاور فى كهوف الجبال . وسوف أحرم من عشرة كليوبى ، وأضطر إلى تركها للأقدار عرضة للكآبة والوحدة .

وكأننى فى اختيارى كالمستجير من الرمضاء بالنار . وخير لى أن أواجه مرارة الحياة وأن يعضنى الإملاق ، فهذا أفضل من ظلمة الأعماق ، والحرمان ممن أغدقت على الحب ، ولا مجال لسكب الدمع والحسرة واليأس ، ولأعتمدن على كفاحى .

سأصبر حتى يعلم الناس أننى
صبرت على شىء أمر من الصبر

عندما أصبح الصباح من دون أن يغمض لكلينا جفن ، صدمتنى الحقيقة المرة ، وهى أننى خالى الوفاض ، ولا يحتوى جيبى على ما يمكننا من شراء ما نسد به الرمق . فهدانى تفكيرى إلى أن فى حوزتى طقم ملابس خارجية (بدلة) غير الذى أرتديه ، إذ أن باقى أمتعتى وثيابى كانت قد ظلت فى بيت أسرتى ، فأسرعت إلى خزانة ملابس كليوبى بدون أن أخطرها بما عولت عليه . وإذا بى أفاجأ باختفاء البدلة الوحيدة التى كنت نويت بيعها . . فهرولت نحو كليوبى أسألها :

ـ أين اختفى طقمى ؟

وعبثاً بحثت ! ! ! فشهقت الأم التى كانت تشاطرها المسكن ، ثم أحنت رأسها وتمتمت :

ـ لابد أن كرياكو استولى عليها فى غفلة منا .

ـ كرياكو ؟ ومن جاء به ؟ لقد نبهتكما بمنعه من الزيارة . ثم كيف تسنى له اكتشاف مقركما ؟

أجابت كليوبى :

ـ فاجأنا قبل يومين بمجيئه ، وتظاهر بالشوق والحنين إلى رؤيتنا ، وما لبث أن كشف لنا عن الدافع الملح لزيارتنا . قال إن أبواب العمل ما زالت موصدة فى وجهه وقد صده الجوع . وبعد أن أكل وشبع ، استجدى منا بعض النقود ، فاعتذرت له لضيق ذات يدنا ، فاكتأب ، ونادتنى أمى للتخلص من مضايقته لنا ، وحاجتها إلى أن أساعدها فى نشر « الغسيل» على السطوح ، وذكرته بأننى سبق لى أن أفهمته أنك أوصيتنا بقطع علاقتنا به ، وإن عليه ـ محافظة على نقاء الجو ـ أن يبادر بمغادرة الدار ، فقد قرب موعد مجيئك !

وعندما نزلت الأم وكليوبى من السطوح لم يجداه ، فتنفستا الصعداء .. ولطمت الأم خديها . وأمطرته باللعنات ، فطيبت خاطرهما . وإذا بكليوبى تعرض على فكرة الاستغناء عن السرير النحاس الذى ننام عليه ، ونكتفى بافتراش المراتب على الأرض ، ولم أجد بداً من الموافقة .

كانت الحرب الأولى كما سبق وذكرت مندلعة وفى أوجها ، والأثاث مرتفع الثمن. فاستحضرت تاجراً للأثاث المستعمل ، فنقدنا ١٢ جنيهاً نستعين بها بصفة مؤقتة . . على أن أسعى لأجد مورداً يسد مصروفاتنا .

مطلوب للاشتراك فى حفلة مع عزيزعيد وروزاليوسف

وهبطت فى الليل أسعى وراء رزقى فى شارع عماد الدين عسى أن يوفقنى الله . ثلاثة أيام بلياليها فى جهد متواصل بلا جدوى . وأشفقت العناية بى فالتقيت بأديب وملحن هاو يدعى عبد الله شداد ، فأسرع إلى مرحباً بلقائى :

– إنت فين يا أخى ؟ دخت وأنا بدور عليك ! وضربت لك التليفون فى منزلك فلم أجدك .

– خير !

– فيه حفلة كبيرة فى النادى اللبنانى ، وحسن فايق عاوزك ضرورى ، ده فيها عزيز عيد وروزاليوسف .

– إيمتى ؟

– الحفلة بعد بكرة . . وأنا مكلف بإعداد برنامجها

– ببلاش ؟

– لا ، بلاش إزاى . ده نادى غنى ، ومستعدين يصرفوا خمسين جنيه .

– وأنا نصيبى كام ؟ ما تأخذنيش . . أصلى الأيام دى مأزوم !

– لما نقسم المبلغ على بعض ، أولا شيل أتعاب عزيز عيد وروزا على الأقل عشرة جنيه ، وبعدين عندك الفرقة الموسيقية ، وولاد عاكف ، والمونولجست حسنى رحمى .

– ماليش دعوة . . أنا عاوز عشرة جنيه .

– عشرة جنيه مرة واحدة ، ده كتير .

– يفتح الله .

تسرعت فى الرفض، فأنا أحوج إلى جنيه واحد . لكننى فهمت أن إدارة النادى تصر على مساهمتى فى البرنامج ، والدافع لهذا أن المنلوجات التى كنت قد اشتهرت بها من الطابع الذى يتفق وذوق أعضاء هذا النادى الراقى ، وبعد أخذ ورد ، اتفقنا على ثمانية جنيهات .

إن الله تعالى هو مصدر الرحمة والغفران ولا سيما للخاطئين . وله ولا شك فى ذلك حكمة .

عندما انتهت بنجاح حفلة النادى اللبنانى ، فوجئت بالأستاذ عبد الحليم المصرى يزورنى خلف الكواليس مهنئاً معاتباً . . وخرجنا معاً ، فقد دعانى للعشاء فى مطعم إيطالى على سطوح أحد مبانى شارع الألفى .

وخلال تناولنا الطعام سألنى إذا كنت أداوم على تدريباتى الرياضية ؟ فاعتذرت له بأن انشغالى بالدراسة قد حرمنى من متابعة المصارعة وحمل الأثقال ..فنظر إلى ملياً وابتسم قائلا :

– اسمع . . أنا عامل حفلة فى سيرك الحاج سليمان وأنا فى حاجة إليك . . أنا عاوزك تصارع شاويش استرالى يوم الخميس الجاى . . وأنا مستعد أدفعلك خمسة جنيه بشرط أنك «تتغلب له » ،علشان أتحداه أنا للخميس اللى بعده !

رنت فى أذنى عبارة « خمسة جنيه » . . وكل جنيه يسد لى خانة ؟ . . فقبلت على الفور . قال :

– سأقدمك للنظارة كبطل الأناضول ، واسمك « إبراهيم بريجيك » .

– حاضر .

أنقدت كليوبى ما أخذته من حفلة نادي لبنان واكتفيت بالاحتفاظ بجنيه واحد

من مبلغ الثمانية جنيهات، لانتقالاتي .

وحلّ موعد المباراة . وعندما قدمني عبد الحليم كبطل تركيا ، دوّى التصفيق والهتاف، وتحمس الجمهور لي بصفتي شرقيًا ، فالتركي في نظرهم أخ شقيق .

كان الاسترالي عملاقاً . . لكن كانت تفوح من فمه رائحة الخمر . وبدأ النزال . . وإذا النظارة يملئوني حماساً ويشبعونني تشجيعاً . وكنت كلما حاولت التظاهر بتفوق الاسترالي عليّ، استعداداً للهزيمة ، هاج النظارة وماجوا وتصارخوا وأمطروني بالدعوات ، وتحولت الحلبة إلى تحد بين شرقي وأجنبي !

وكانت هناك امرأة مصرية سقطت على الأرض وأخذت تصرخ كاللبؤة وتصيح :

— قولوا معايا يا سيدة نفيسة ! !

فيردد الجمهور نداءها كقرع الطبول . وبذلت جهداً جباراً لأخفف وقع هزيمتي على مواطني ، بيد أن حماس المتفرجين جعلني أتردد في تنفيذ اتفاق عبد الحليم، وشعرت أنني في ساحة حرب. وأن الآمال معقودة عليّ .. وتحولت إلى هرقل . . واعتزمت ألا أخذل من أولوني عطفهم ، وعميت عيناي وتحولت عضلاتي إلى فولاذ، وبخاصة عندما استغل غريمي ترددي فكان يصوب ضرباته المخالفة لأصول المصارعة إلى وجهي! ولففت ذراعي حول العملاق ورفعته عن الأرض وصرت أدور به على الحلبة وأدور وأدور ،حتى أصابه الدوار فرميت بجثته الماثلة على الأرض وقذفت نفسي فوقه وضغطت بركبتي على صدره، حتى انهارت مقاومته وأصيب بشبه إغماء واستسلم، فلمست كتفاه الأرض .

ووصل صياح النظارة إلى عنان السماء، وتفجرت أحاسيسهم كالبراكين واندفع



عبد الله وهبي باشا نجل القاضي التونسي هديب قطب ، ووالد يوسف وهبي

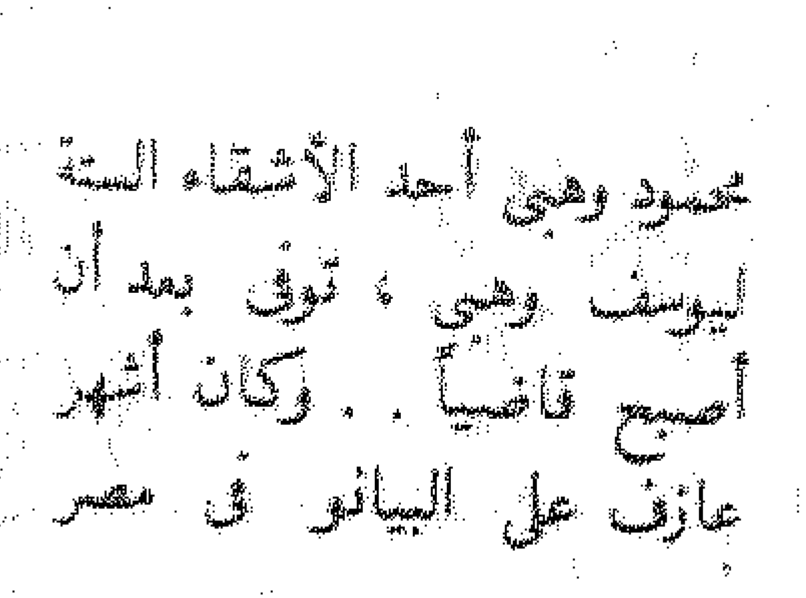


والدة الأستاذ يوسف وهبي
فى صباها ، شفيقة هانم فهمى
ابنة على باشا فهمى

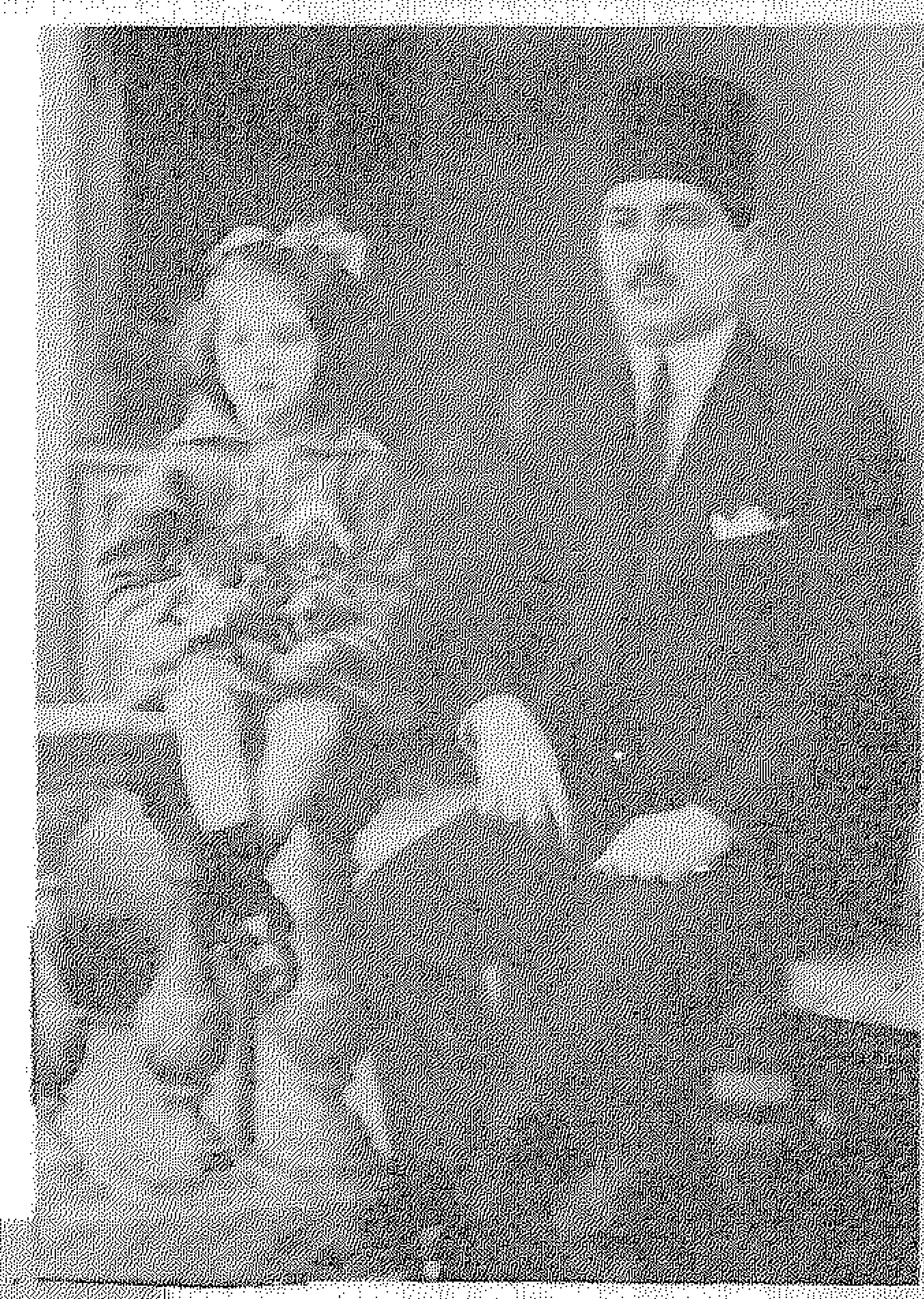


إسماعيل وهبى المحامى والأديب ، وهو الوحيد
الباقى على قيد الحياة من أشقاء يوسف وهبى





محمود وهبى أحد الأشقاء الستة
ليوسف وهبى ، توفى بعد أن
أصبح قاضياً . . وكان أشهر
عازف على البيانو فى مصر



المهندس محمد وهبى شقيق يوسف وهبى الأكبر وخريج الجامعة الملكية بلندن ، وبجواره ابنته زينب



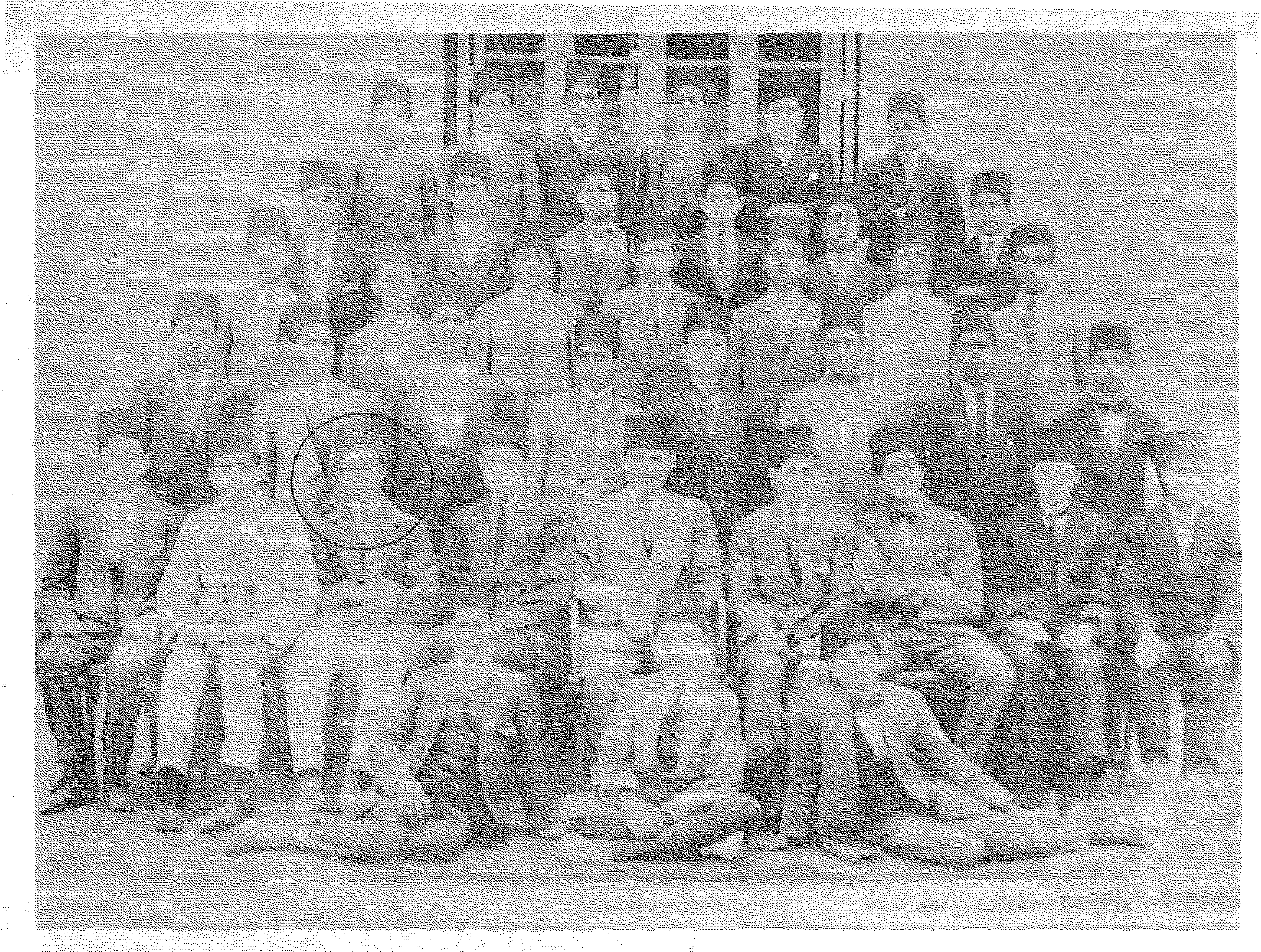
عباس وهبى أحد أشقاء يوسف وهبى ا وخريج مدرسة السنترال فى باريس



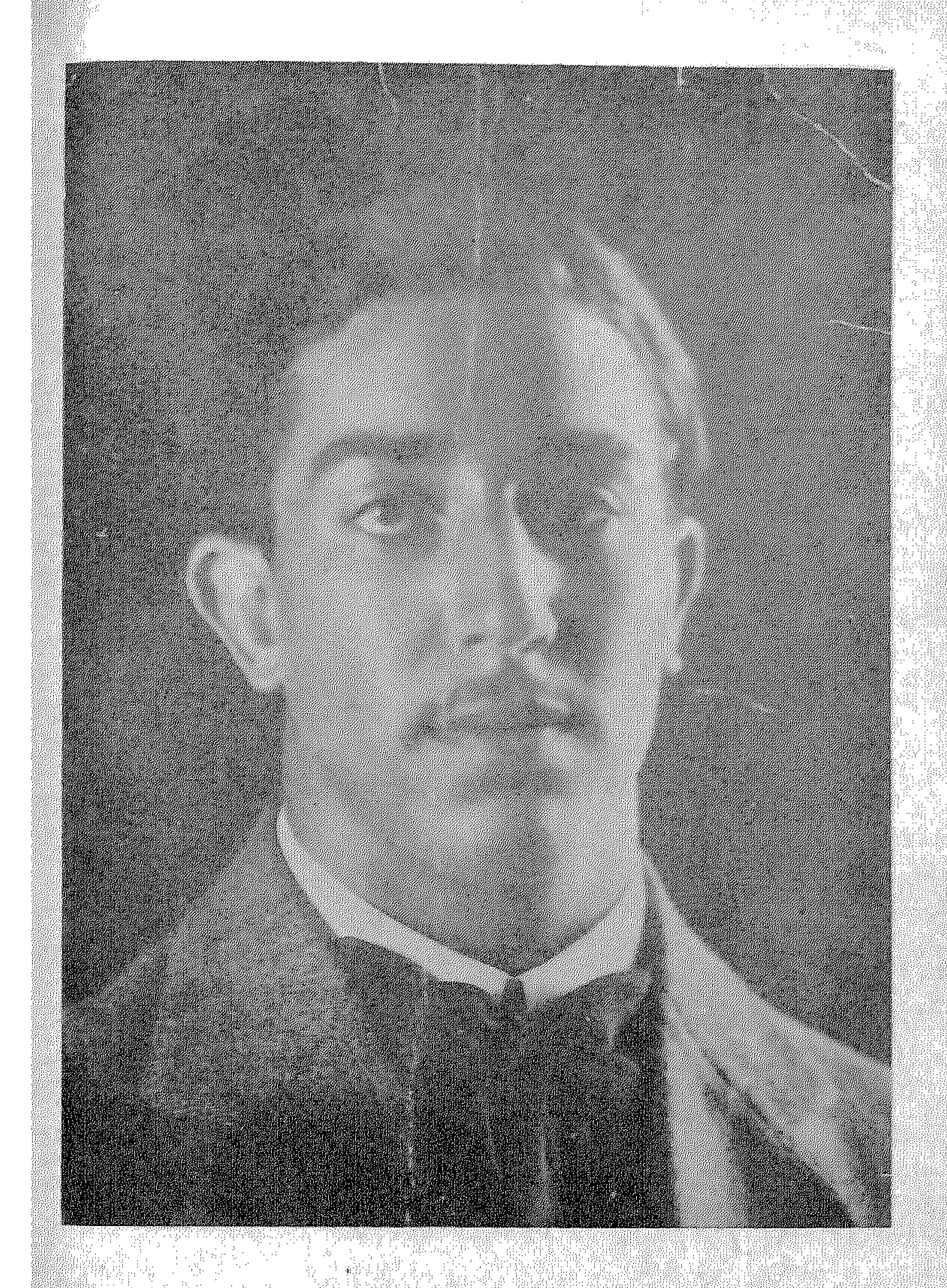
زوجة يوسف وهي الأمريكية مغنية الأوبرا «لويزلند» التي تعرف عليها حيث
كانا يدرسان معاً بالمعهد العالي بميلانو ، وقد أصبحت فيما بعد مطربة كبيرة



دادة رقية مربية يوسف وهبى



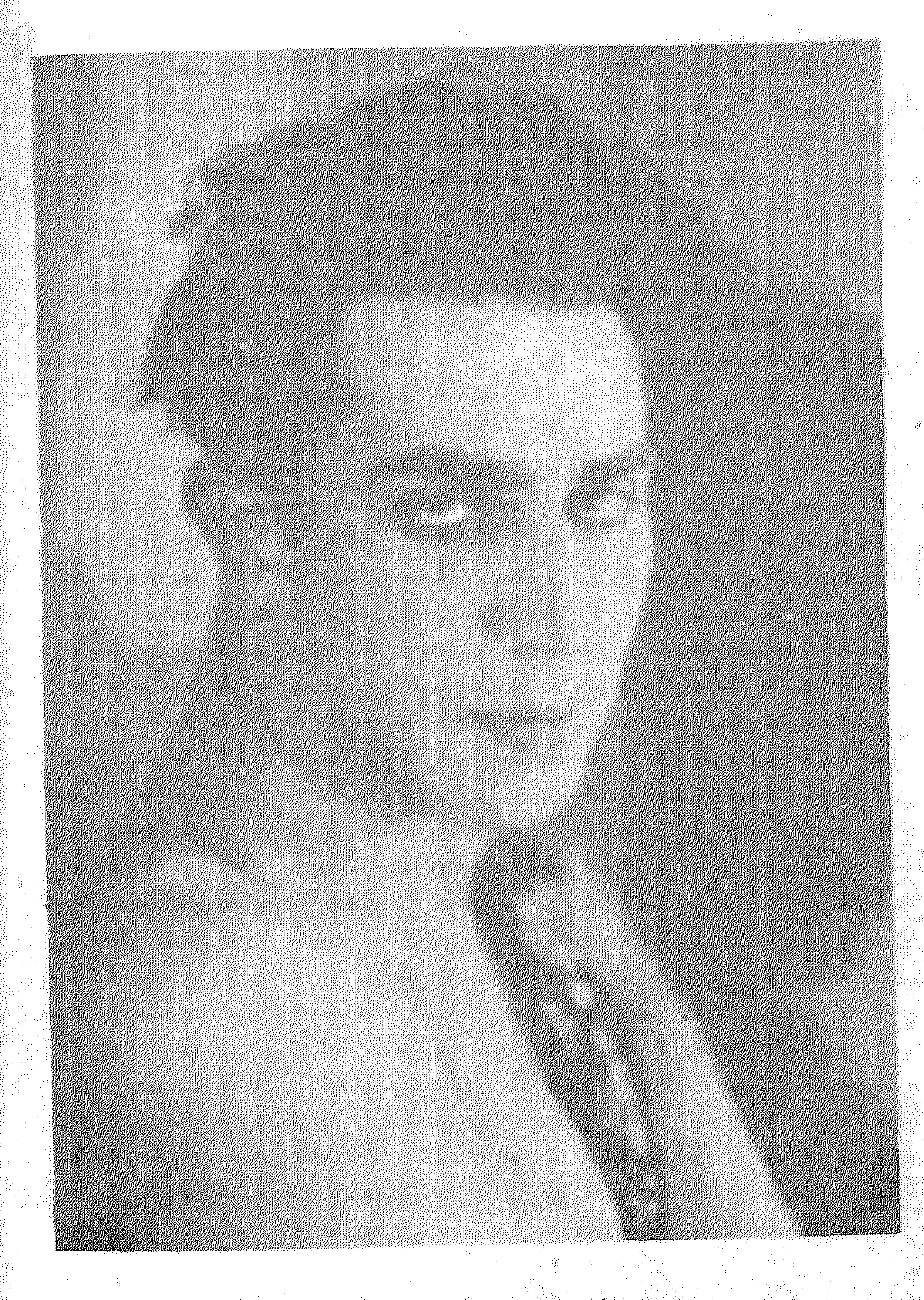
يوسف وهبي في الرابعة عشرة من عمره ، وهو طالب بالمدرسة السعيدية



يوسف وهبى فى السادسة عشرة ، فى بدء هوايته إلقاء المنولوجات بالنادى الأهلى



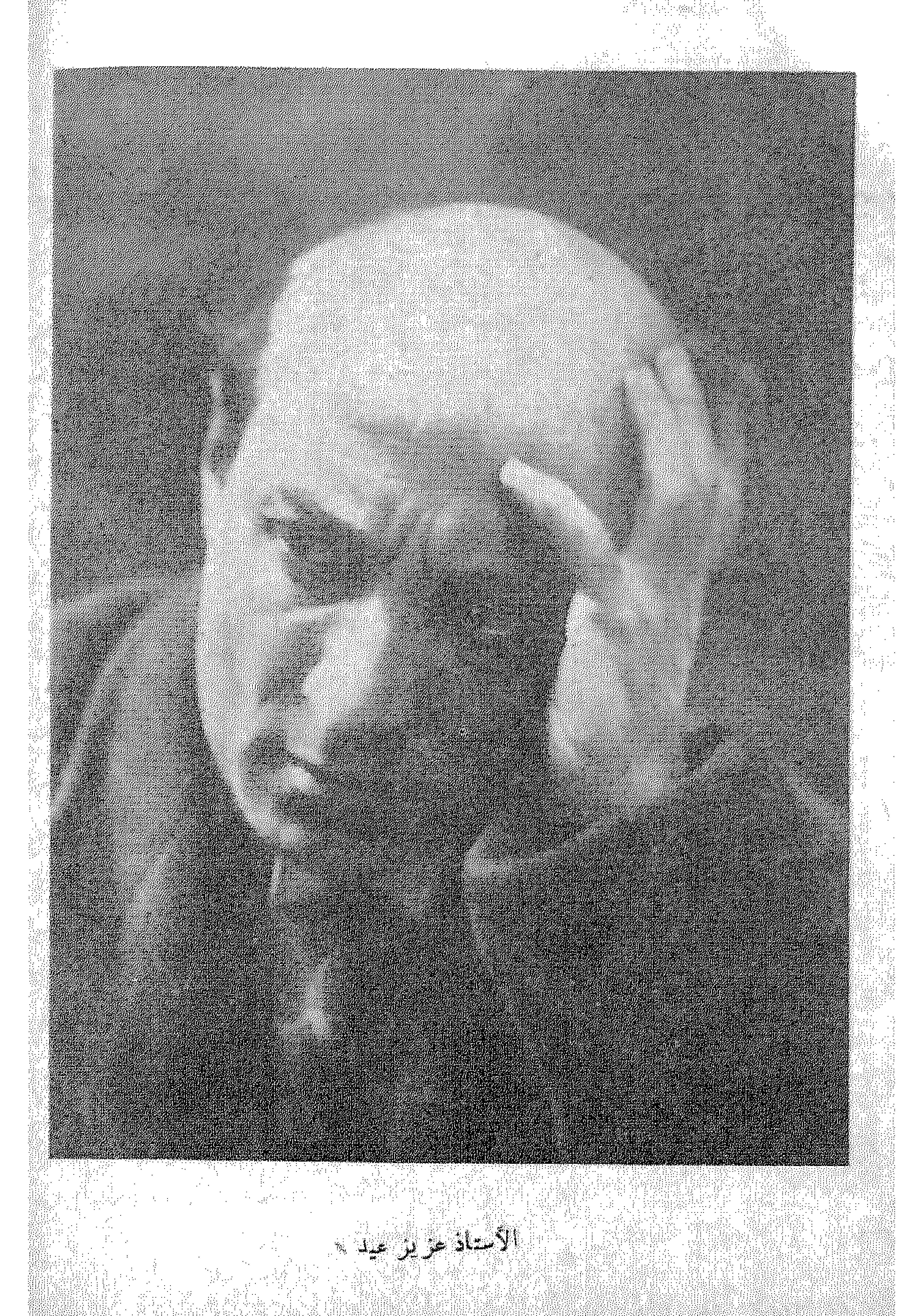
« محمد كريم شيخ المخرجين والرائد الأول للسينما العربية ،
وصديق طفولة ليوسف وهبي »



يوسف وهبي كان مصارعاً فى سيرك الحاج سليمان وله من العمر ستة عشر عاماً ، وتدرب على أيدى بطل الشرق المصارع العظيم عبد الحليم المصرى



السيدة عزيزة أمير



الأستاذ عزيز عيد *



السيدة فاطمة رشدى



الآنسة فردوس حسن



الأستاذ حسين رياض



الأستاذ أحمد علام



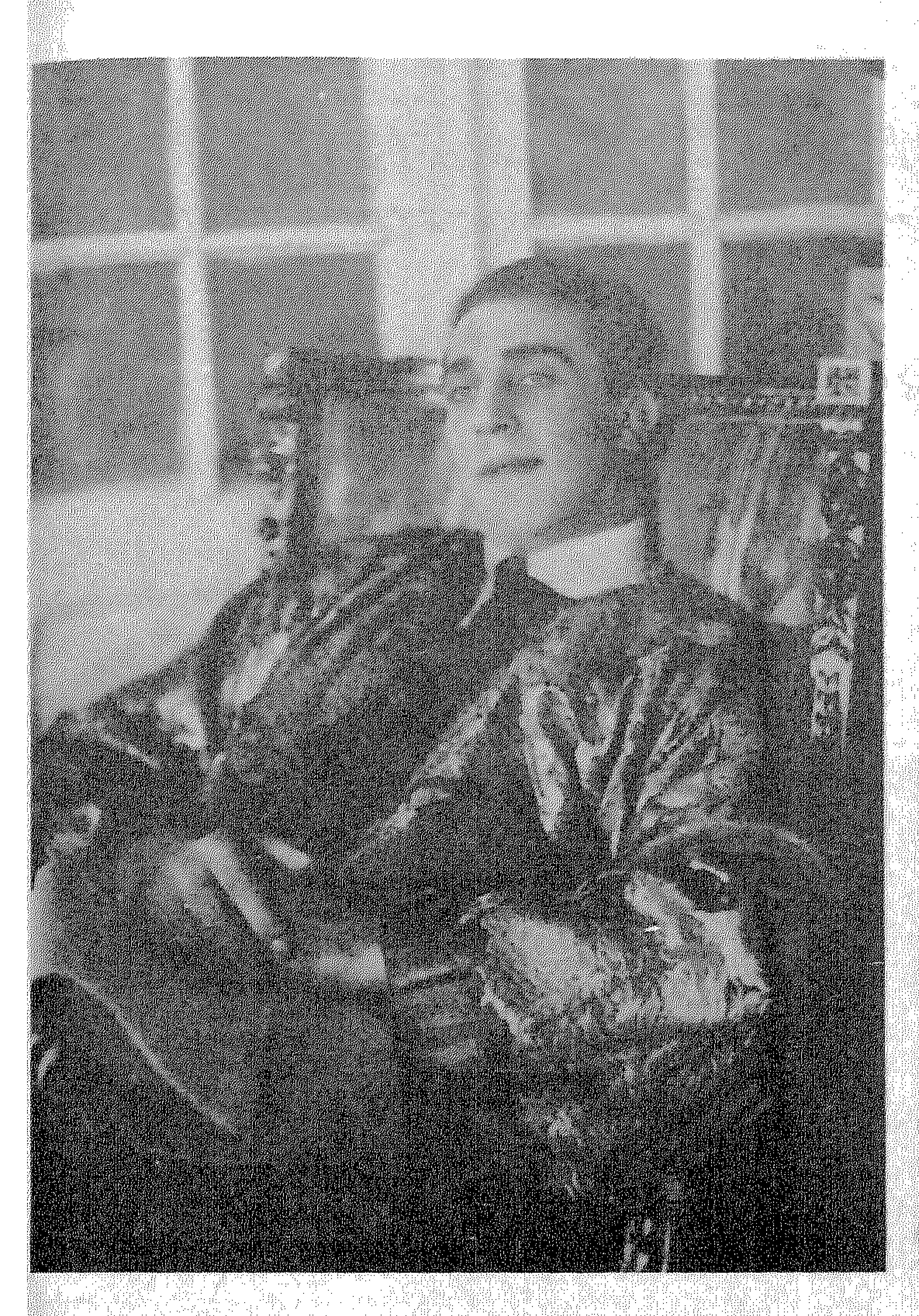
السيدة زينب صدقي



أول إعلان عن مسرح رمسيس ظهر في شوارع القاهرة قبيل الافتتاح سنة ١٩٢٣



أول صورة أخذت لفرقة رمسيس خلال التدريب قبل افتتاح مسرح رمسيس وهي تجمع كل مؤسسي الفرقة . ومنهم الفنان الكبير عزيز عيد . وحسين رياض ، وفتوح نشاطي ، وإدمون تويما ، وقاسم وجدي ،



يوسف وهبى فى مسرحية « ناتاشا » على مسرح رمسيس سنة ١٩٢٣



افتتاح مسرح رمسيس بمسرحية المجنون فى ١٠ مارس ١٩٢٣
مع الفنانة روزاليوسف



يوسف وهبي على باب الممثلين بمسرح رمسيس ينادى أحد الممثلين
المتأخرين عن البروفة



يوسف وهبى فى دور المهراجا فى مسرحية « انتقام المهراجا »



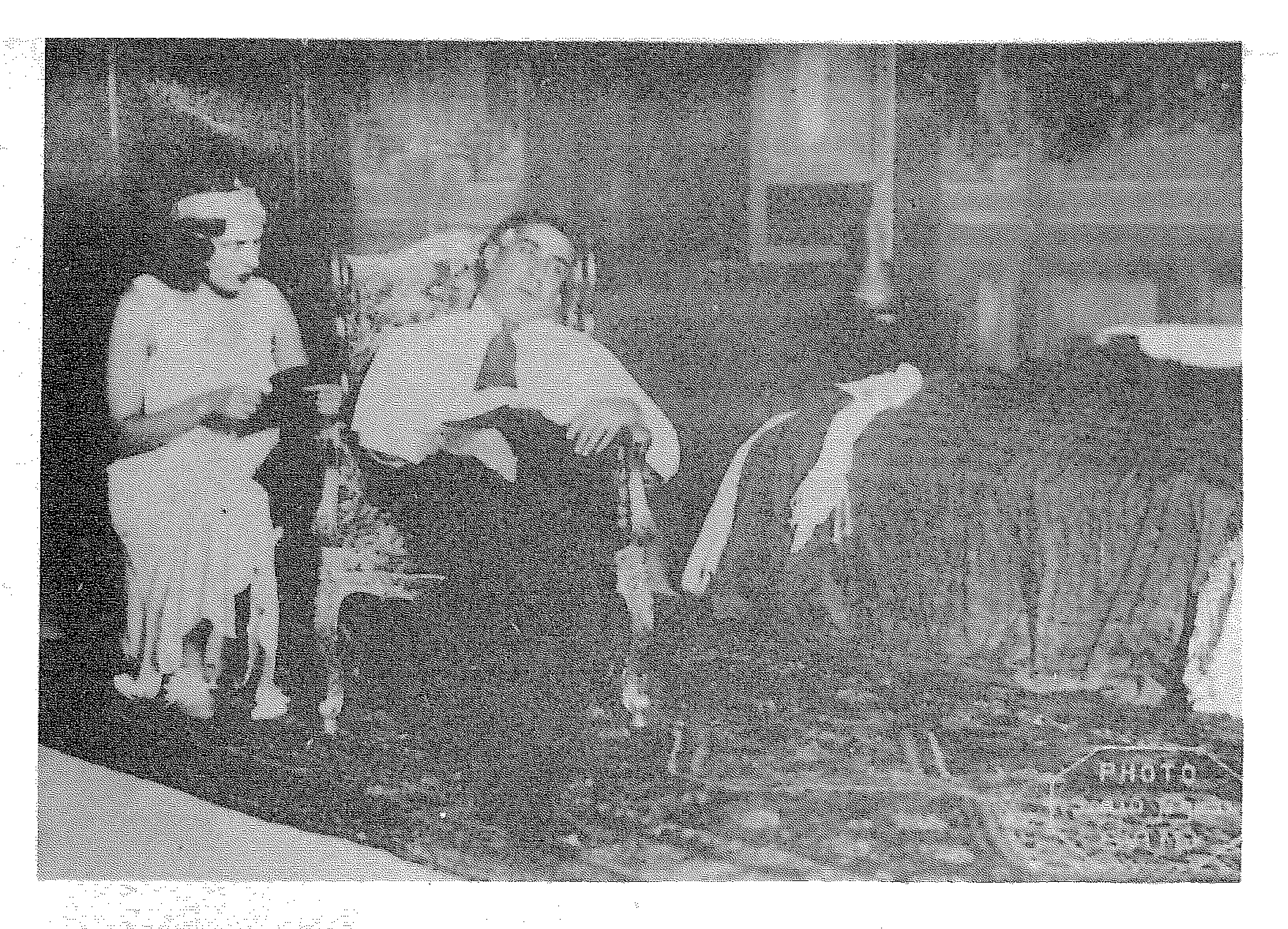
يوسف وهبي في بطولة مسرحية « الاستعباد » التي أعقبها مصرع السير « لى ستاك » سردار الجيش المصرى ، والتي خلدت كفاح الأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار الفرنسي والأسباني . . منع عرض المسرحية في الأيام الأخيرة لوزارة سعد زغلول



يوسف وهبي فى مسرحية « غادة الكاميليا » مع زينب صدقى



يوسف وهبى فى دور الكاردينال فى مسرحية «كرسى الاعتراف»



مشهد من المسرحية الاستعراضية (خفايا القاهرة) التى افتتح بها
يوسف وهبى مدينة رمسيس (مدينة الأوقاف الآن)



يوسف وهبي في فيلم (المجد الخالد) مع أمينة رزق واستفان روستي



يوسف وهبي في مشهد من مسرحية « كرسي الاعتراف »



يوسف وهبى وعزيزة أمير وحسين رياض فى مسرحية (أولاد الذوات)
التى أخرجها فيما بعد للسينما كأول فيلم ناطق باللغة العربية



(كوليت داروى) الفنانة الفرنسية بطلة فيلم (أولاد الذوات) وقد هاجمتها الصحافة الأجنبية لقيامها بدور الزوجة الأجنبية الخائنة



مشهد يجمع بين علوية جميل وأمينة رزق ويوسف وهبي في
مسرحية (بنات اليوم)



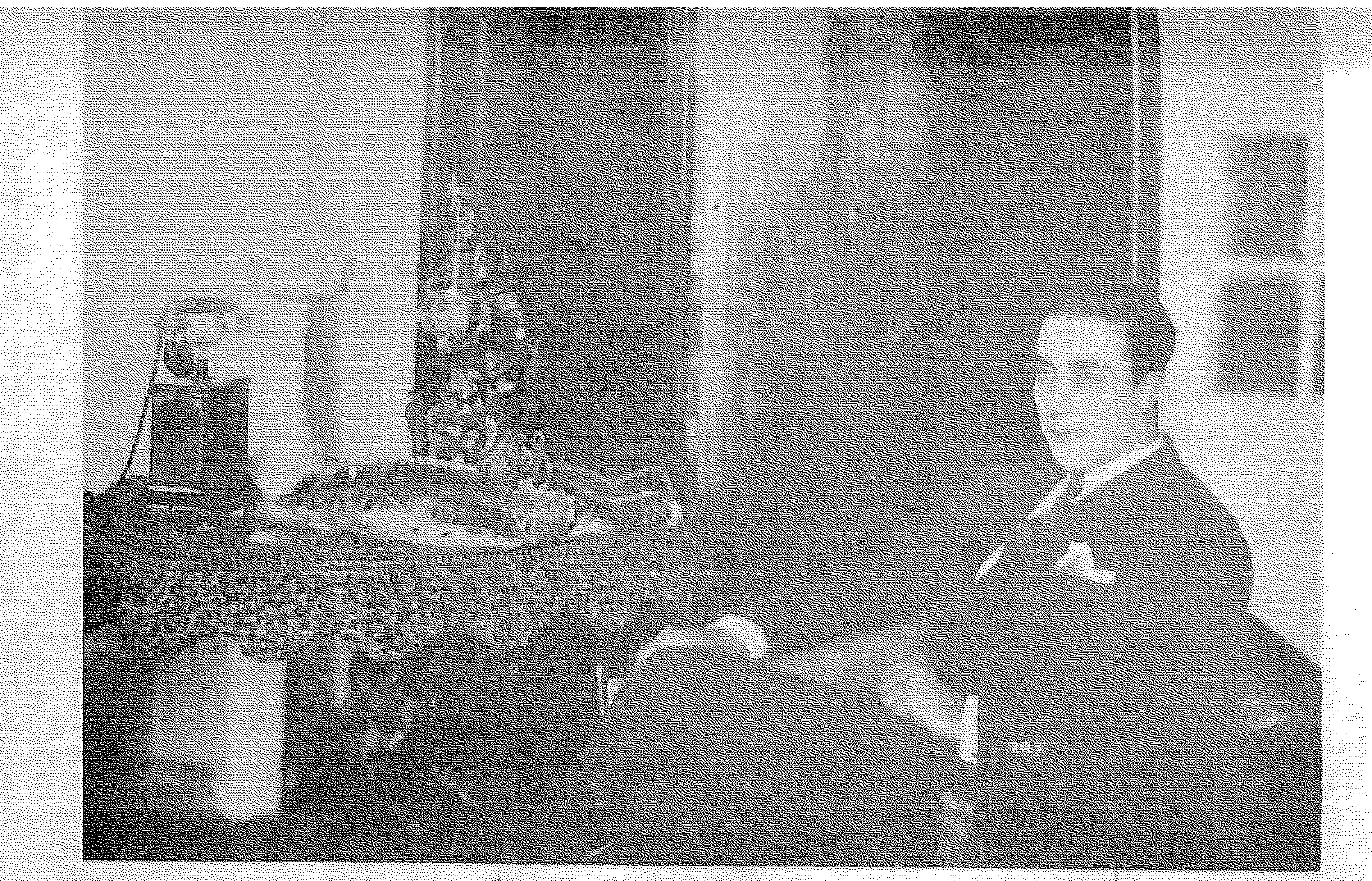
يوسف وهبي في شخصية راسبوتين وإلى يمينه فيفي يوسف وعبد البديع العربي



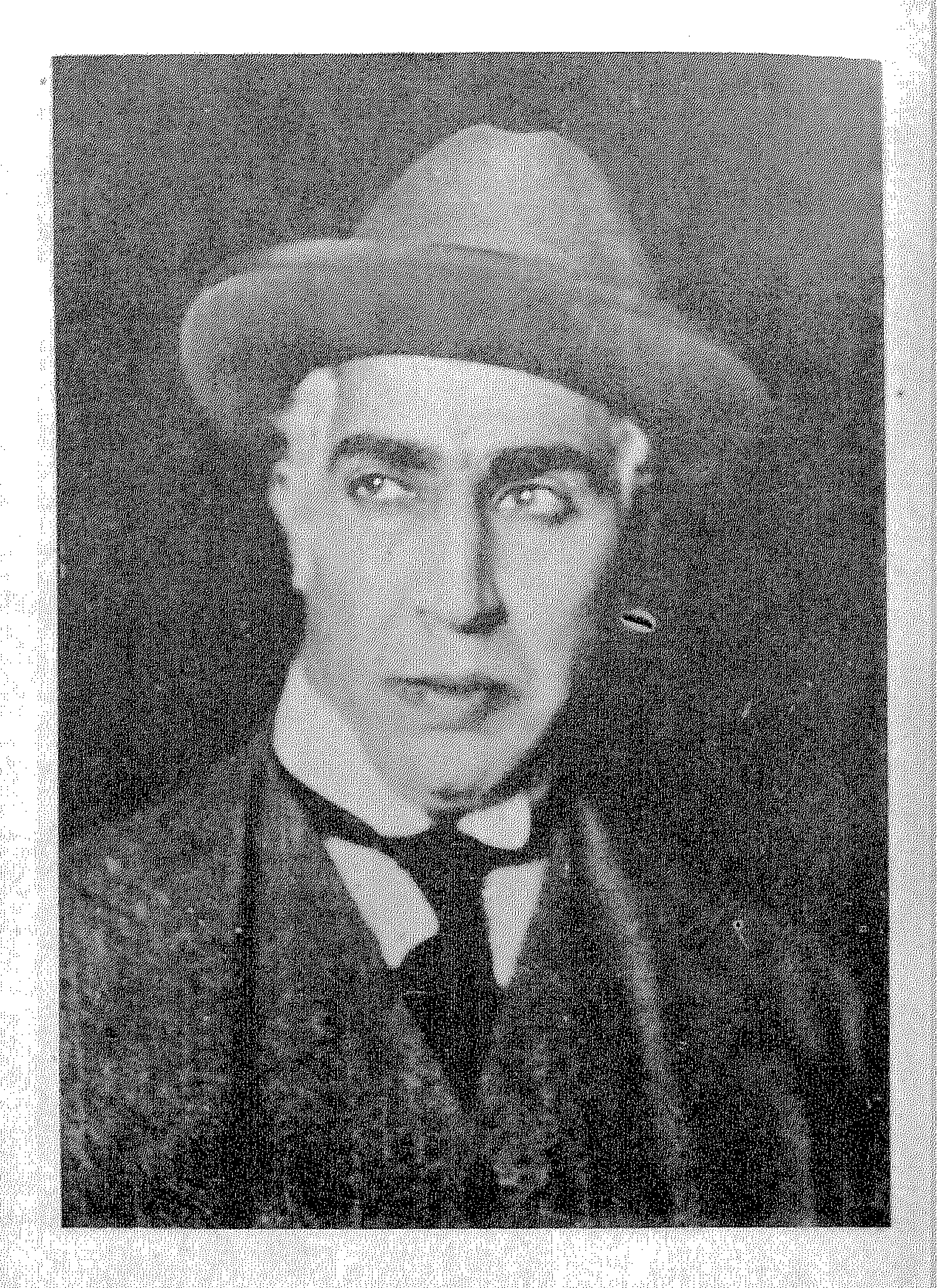
يوسف وهبي في دوره الفاتك الراهب راسبوتين بعد إعادة عرضها سنة ١٩٥٨
ومعه سلوى محمود، ظهر في المسرحية لأول مرة سنة ١٩٢٤ على مسرح رمسيس



يوسف وهبي فى مسرحية المستر « فو » مع الفنانة روز اليوسف



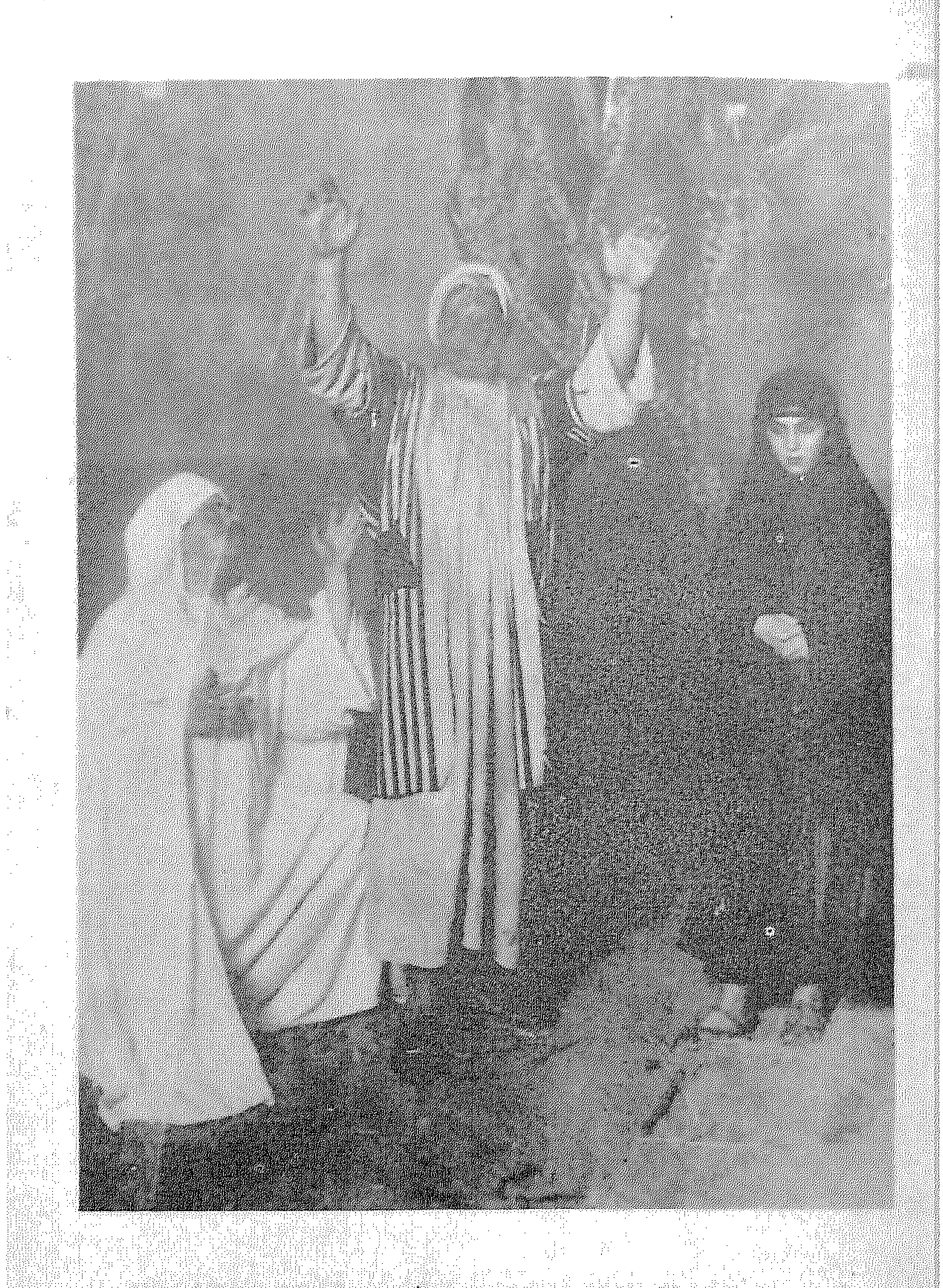
يوسف وهبي في مسرحية « الشرف »



يوسف وهبي في دوره الكبير بمسرحية «الجبار» ، لبرنشتين



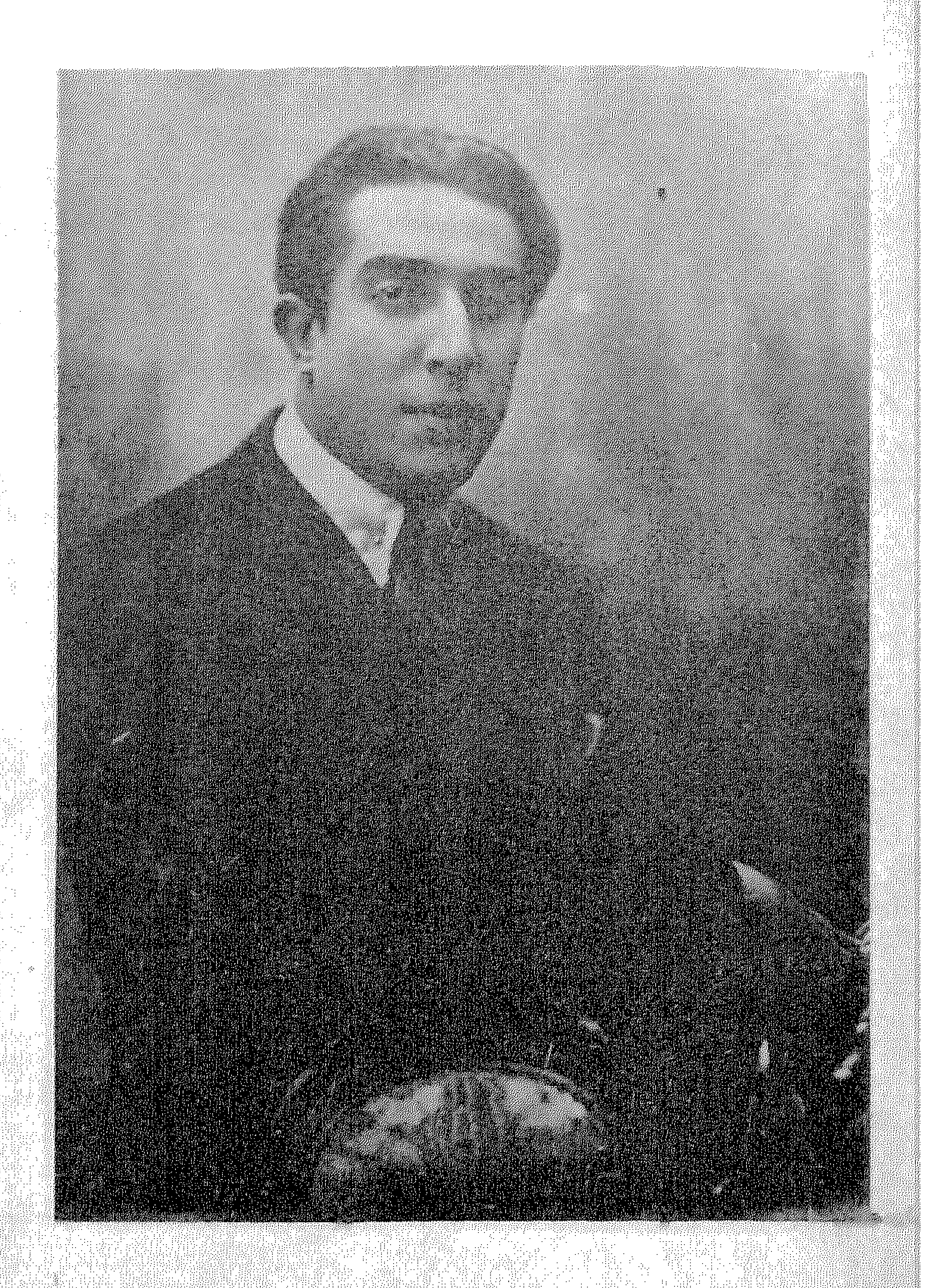
يوسف وهبى فى شخصية الأمير المناضل حماد بن سعد فى مسرحية «الصحراء» الوطنية



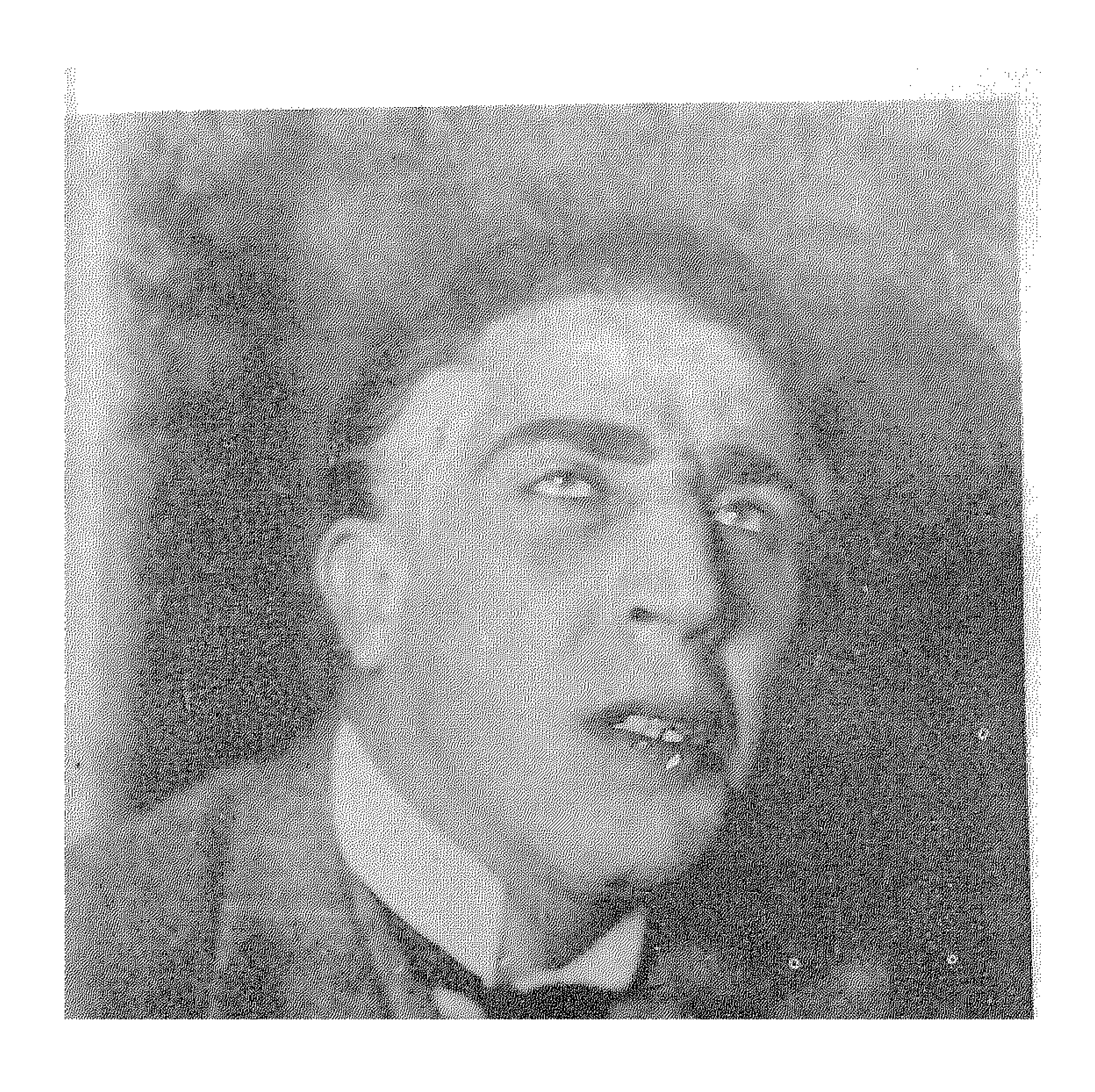
يوسف وهبى وفاطمة رشدى وحسين رياض فى مسرحية « الصحراء » الوطنية



يوسف وهبي في مسرحية « السارق » المترجمة ، لمؤلفها هنري باتاي



يوسف وهبي في دوره بالمسرحية الإيطالية « تيار الملذات »



يوسف وهبي في مسرحية « التضحية »



يوسف وهبى فى دور القاضى المنفصم الشخصية فى مسرحية « النائب هالير »



يوسف وهبى فى مسرحية « الإغراء »



يوسف وهبي فى دور همام باشا فى مسرحية «الذبائح» لأنطون يزبك المحامى



يوسف وهبي في مسرحية « سيزار بورجيا» تقاسمه البطولة السيدة زينب صدقي



يوسف وهبي في مسرحية « البرج الهائل »



يوسف وهبى فى مسرحية « الكونت دى مونت كريستو »

مئات منهم إلى الحلبة فحملونى على أكتافهم . . وكان معنى هذا الانتصار أن على عبد الحليم أن يتحدانى لمنازلته فى الخميس المقبل. لكنه لم يجد بداً من أن يعلن للنظارة — كاتماً غيظه — عدم رغبته فى منازلتى ، فالمصرى والتركى أشقاء .. وبذلك أرضى مشاعر الجماهير ، لكنه لحق بى إلى الخيمة حينما كنت أرتدى ملابسى ، وصفعنى على وجهى صفعة ألقتنى على الأرض .

وخسرت أنا الخمسة جنيهات الموعودة .

زيارتى لشقة السيدة روز اليوسف

كان الأستاذ عزيز عيد ممن، حضروا حفلة النادى الأهلى الكبرى السنوية التى اشترك فيها الفنان الكبير المرحوم محمد عبد القدوس .

وجاء الأستاذ عزيز عيد لتهنئتى وسأل عنى ، فاستدعانى الأستاذ عبدالقدوس وقدمنى إليه ، فأبدى الأستاذ عزيز إعجابه وأطرى مواهبى بحماسة ، وطلب الاجتماع بى فى أقرب وقت ، فحدد له الأستاذ عبد القدوس موعداً فى منزله بحى السكاكينى ، وكان حينذاك زوجاً للسيدة روز اليوسف .

ذهبت فى الموعد المحدد فاستقبلتنى الفنانة الكبيرة روز اليوسف التى كنت حضرت لها المسرحيات الفودفيلية التى اشتركت فيها مع الفنان عزيز ، وكنت من أشد المعجبين ببراعتها وقدرتها . وكان يبدو على محياها أنها أفاقت لتوها من النوم . بادرتها بالتحية فسألتنى برقة وهى تتفرس فىّ بنظرات فاحصة : « أى خدمة . . ! »

أدركت على التو أنها تجهل سبب حضورى ، فأسرعت وأفهمتها أننى على موعد

مع الأستاذ عزيز عيد حدده زوجها الأستاذ محمد عبد القدوس . . فأجابت :

— محمد راح الشغل (كان الأستاذ محمد عبد القدوس يعمل مهندساً فى وزارة الأشغال) أما عزيز فمالوش مواعيد .

— طيب آجى يوم تانى .

— لا . . إتفضل . . . مدام فيه ميعاد لازم حاييجى . تشرب فنجان قهوة ؟

— شكراً . . ما فيش مانع .

بقيت بضع دقائق وأنا محرج ، حتى جاءت الفنانة بصينية القهوة وسألتنى بلطف عن سبب حضورى ، فأدركت أنها لا تعرف عن هوايتى شيئاً . فأفهمتها أننى من الهواة وعضو من أعضاء جمعية أنصار التمثيل ، وذكرت لها اسمى ، فصاحت :

— آه . . . أنا سمعت عنك . وعزيز اتكلم كتير عن مواهبك وكان متحمس قوى . . انت بتقدم منولوجات موسيقية مهولة ، وبنوع افرنجى جديد . .

لم أجب . ومرت بضع دقائق .. فقطعت هى الصمت :

— ماتاخدش على مواعيد عزيز هوّا دايماً كده . يمكن كمان نسى الميعاد . .

— معلهش . بس أرجوكى تقولى له إنى جيت النهارده حسب الموعد .

وهممت بالوقوف . .

وإذا بطرق على الباب .

فصاحت السيدة روزا :

— لازم هوّ . . .

استقبلته بالتأنيب فأجاب متنصلا :

عزيز : أصلهم ماصحونيش بدرى . .

والتفت نحوى ودقق النظر فىّ .

فضحكت السيدة روزا وقالت :

روزا : أصل عزيز نظره ضعيف قوى . . دا يوسف وهبى . . مش كنت اديته ميعاد ؟

عزيز : أيوه ، أيوه ، لا مؤاخذة . بالحضن بالحضن !

كان متأبطاً مجلداً . .

عزيز : خدى يا روزا . أما لقيت كام رواية فودفيل مهولة . . اقعد اقعد . .
على فكرة يا روزا . دا فنان ممتاز وابن باشا . .

روزا : أيوه . محمد كلمنى كتير عنه . .

عزيز : شوفى القوام ، والشكل . لا . . وإلقاؤه مدهش وبيلحن منولوجات ومشهور فى النوادى . .

روزا : يا ريتك تقنعه ينضم للفرقة الجديدة . .

عزيز : خدتيها من بقى يا روزا ، أنا كنت عاوز أقابله مخصوص علشان كده ، لكن بلغنى إنه لسه بيدرس .

روزا : بتدرس إيه ؟

خجلت أن أخبرها بقصتى وأجبت دون تفكير :

يوسف : أنا كنت طالب بمعهد الزراعة . . لكن سبت المدرسة من شهر . .

عزيز : عملت طيب . . أنت مستقبلك فى المسرح . .

يوسف : ياريت بس كان والدى . .

عزيز (مقاطعا) : إيه رأيك ؟ عندك فرصة ماتتعوضش . . مدام «مارسيل» صاحبة مسرح

« الكازينو دى بارى » اللى كان بتشتغل عليه فرقة على الكسار ، عرضت على مشروع تكوين فرقة تنافس كشكش بيه . وَنا حضرت رواية هايلة من تأليف الأديب إبراهيم رمزى .

سألته روزا :

روزا : واسمها إيه ؟

عزيز : اسمها « حنجل بوبو » !

ضحكت روزا من غرابة الاسم .

عزيز : دا موضوعها مصرى بحت . ويا ريت يوسف ينضم للفرقة ويمثل شخصية العمدة فى الرواية . . وكمان نجربه فى تلحين الأغانى . . .

يوسف : فكرك أقدر ؟

عزيز : ليه لأ . . دا معانا الأستاذ « كاميل شامبير » الملحن المعروف وحيساعدك. وانت لك لون جديد . شوف بقى . . أنا مستعد لو انضميت للفرقة أديلك مرتب شهرى أربعين جنيه عن التمثيل ، وأربعين جنيه عن التلحين . يعنى ثمانين جنيه يابوحجاج ، من بكرة حانبتدى البروفات. وقدامنا شهر طويل، أنا فى جيبى زجلين متلحنين . . خدهم وجرب نفسك . .

أجابت روزا بابتسامة :

روزا : مبروك . . دا محمد جوزى (عبد القدوس) يحبك قوى . .

يوسف : وأنا كمان أحبه خالص . . دا أستاذ عظيم . .

* * *

فى اليوم التالى التقيت بمدام مارسيل الفرنسية صاحبة مسرح « الكازينو دى بارى »، وكانت سيدة قد تجاوزت الخمسين ، صبغت شعرها بصبغة حمراء ،

وكانت كما عرفت فيما بعد من أشهر الغانيات الأجنبيات ، وقد كان لها ضحايا كثيرون من أغنياء مصر . وجمعت ثروة طائلة .. وقد رحبت بي كثيراً في شيء من المبالغة ، ففهمت أنني رقت لها ، وأنقدتني في الحال أربعين جنيهاً ، ولكي تعبر لي عن سرورها قبلتني فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها .

وكانت فرحة كليوبي لا توصف . . فهذه أول بوادر هبوط الثروة المفاجئ ، (فقد كان هذا الأجر الشهري بمثابة كنز « مونت كريستو » فتح أمامي) فاشتريت بدلة جديدة ، ووعدت كليوبي أن أبحث لها عن مسكن لائق بالقرب من شارع عماد الدين ، ثم نبدأ في تأثيثه تدريجياً . .

اقترحت كليوبي ، زيادة في تنمية مواردنا ، أن أطلب من عزيز عيد ضمها إلى الفرقة ، وكنت على ثقة أن عزيز سيرحب بها ، فهي جميلة جذابة رشيقة .

علمت أن الفرقة قد انضمت إليها النجمة السيدة دولت حبيب « السيدة دولت أبيض الآن » ، التي تنحدر من أسرة قبطية عريقة . وممن جنى عليهم حبهم للمسرح من سيدات ورجال ، فضحت بزوجها وبيتها الكريم ، وكانت ستعتلي مثلي لأول مرة – كمحترفة – خشبة المسرح . وكان «كاميل شامبير » موسيقيا موهوباً بارعاً قديراً ، وبخاصة في النفخ على آلة البيستون النحاسية وكتابة النوتة الموسيقية ، وقد شجعني كثيراً بإظهار استحسانه لألحاني .

تنبأت بإلغاء الألقاب ، قبل إلغائها بـ ٣٥ سنة !

وهنا أود أن أسجل نبوءة هبطت علىّ عفواً ، أو هي رمية بغير رام . فقد نظمت ، ضمن ما نظمت من أزجال ينشدها العمدة بطل المسرحية ، الزجل الآتي :

يا نا يانا من قولة يا بيه . .

فضلم ورانا يقولوا يابيه . .

يابيه يابيه لما البيه بار والبهوية ! . .

نظمت هذا سنة ١٩١٧ ، وصحت نبوءتى سنة ١٩٥٢ ، فألغت الثورة الألقاب . .

جمعت الفرقة بين من جمعت من ممثلات وممثلين : بشارة واكيم ، واستيفان روستى ، وعدداً وفيراً من الراقصات الأجنبيات . لكن الصدمة التى صدمت بها ولم أكن أتوقعها ، كانت أن اثنتين من ممثلات الفرقة بطلتان من بطلات مغامراتى :

إحسان كامل الأرمنية ، وببا اليونانية ، التى استطاعت مدام مارسيل صاحبة الكازينو وممولة الفرقة ، بطريقة ملتوية وبحيلة من جعبة أصحاب الامتيازات الأجنبية أن تعيدها إلى القطر المصرى تحت اسم جديد ! . .

صعقت عندما وجدت نفسى بين شقى الرحى ، وهدفاً لسهمين حادين ، أما إحسان فقد بدا حقدها ظاهراً وواضحاً . . وأما الأخرى فقد أملت أن بإمكانها إعادة المياه إلى مجاريها معى . كما أن انخراطهما فى الفرقة قطع الطريق على انضمام كليوبى للفرقة . .

ارتأيت أن من الحكمة أن أكون لبقاً مرناً لأتجنب الطعنات الطائشة ، فتجاهلت غمز إحسان وتحديها ، وتحرش ببا ، وارتأيت ملاطفتهما ومجاملتهما .

لكن الاثنتين أخطأتا فهم تسامحى ومقصدى من معاملتهما كصديقتين وزميلتين ، فانقلبت الآية ، وفطنت إلى مسعى كل منهما على حدة .

كنت بينهما مثل بلجيكا بين ألمانيا وجيش الحلفاء !

استنتجت من عودة إحسان إلى التقرب منى أن هدفها استمالتى لمجرد الانتقام من كليوبى. أما الأفعى الأخرى فقد أثارتها ملازمة إحسان لى فى ساعات التدريب وهمسها الخافت وتظرفها ، فأصاب هذا فيها مكامن الغيرة، واشتعلت المنافسة بينهما للاستئثار بقلب رجل واحد، وتطورت إلى الشجار العلنى ، وإعلان الحرب، فأصبحت كبلجيكا بين ألمانيا وجيش الحلفاء ! وكنت أرقب الموقعة (التى بلغت ذروتها بالتضارب وشد الشعر ، والتقاذف بعلب البودرة والأحذية !) عن كثب ، كمراسل حربى محايد !

وظهرت إعلانات الفرقة فى شوارع القاهرة وعليها اسمى بالخط العريض .

وجاءنى شقيقى إسماعيل الذى عاد من أوربا ، ليحدثنى عما يعانيه أبى من مذلة وهوان لاحترافى التمثيل وقراءته لاسم وهبى فى الإعلانات . . وقص علىّ أن أبى ، عندما كان يشيع جنازة صديق عزيز ، شاهده أحد الباشوات فى الجنازة يذرف الدمع ، فأراد مواساته على فقد صديقه الراحل الذى يبكيه فأجابه :

– إنما أبكى على اسمى وسمعتى . انظر إلى هذه الإعلانات ، وفيها اسم وهبى بالبنط العريض . . أنا برىء من يوسف للأبد . . لا هو ابنى ولا أعرفه، وححرمه من الميراث !

وتوسل إلىّ أخى أن أتخلى عن العمل المسرحى الذى أوشك أن أتردى فيه ، فاعتذرت لقرب موعد الافتتاح واعتماد عزيز عيد على مساهمتى .

جنود الحلفاء السكارى يقذفوننا بالطماطم والبيض !

تحول قصف مدافع إحسان وببّا ضدى عندما فطنتا أنى وهبت قلبى لثالثة، فكانت الطامة الكبرى . بيد أنى صمدت فى حصنى ودارت الدائرة على الباغيتين ، ففصلتهما مدام مارسيل من الفرقة .. فاسترحت وحمدت ربى .

.. كان شارع عماد الدين يعج بجنود الحلفاء السكارى ، الذين كانت تغص بهم المسارح والكباريهات من كل نوع .

وفى ليلة الافتتاح اكتظت بهم صالة التياترو ، ولم يفقهوا من سياق العرض شيئاً . ولكى يعبروا عن سخطهم ، تسلحوا فى اليوم التالى بحبات الطماطم والبيض الفاسد، وحزم البرسيم ، وكنا للجنود هدفاً سهلا ، فانهالوا علينا رشقاً بكل ما جمعوا . وتكرر هذا فى الأيام التالية ، وتفاقم اعتداؤهم فحطموا مرايا البوفيه واعتلوا المسرح ليعبثوا بالراقصات ، ويجذبوهن من ثيابهن ، وصدقت مدام مارسيل الشائعة القائلة إن عزيز عيد مصدر نحس كما كانوا يشيعون عنه .

وانتهت الفرحة بمحزنة ، فقد أغلق المسرح أبوابه . . واكتفت مدام مارسيل بعرض الراقصات فى الكباريه الملحق بالكازينو.

وسُرِّح أفراد الفرقة، ونضب معينى ومورد رزقى ، وكشرت لى الفاقة عن أنيابها.

قلب الأم

إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وتفجرت الحمم من أفواه البراكين ، وعم الطوفان الأخضر واليابس ، فقلب الأم كالطود الراسخ ، وحنانها لوليدها كرحمة الله السرمدية ، فما أحلاه من لفظ يخرج من الشفاه فتتفتح له السماء ، الأم ، الأم ، لفظة شجية كوقع أنامل ملائكية . إنها كروان النفوس الصداح ، والأمل الذى يشدد العزائم ويجفف الدموع التى يسيلها اليأس ، وبلسم الجراح .

إنها رحمة الله الواسعة .. لم تنسنى أمى ، ولا أوهن حبها غضب أبى ، فأرسلت الرسل تبحث عنى ، وكانت وصفية التركية التى جاءت بها والدتى من الآستانة (استامبول) تعرف مقرى ، فسعت إلى تناشدنى العودة إلى البيت . . إن أمى ستفعل المستحيل كى أنال صفح أبى ، أما أنا فقد ركب رأسى العناد ، أو بالأحرى خشيت نقمة والدى ، ولما يئست من إقناعى أعطتنى عشرين جنيهاً منحة من (ست الحبايب) أمى .

فكرة السفر إلى روما

وقد أعانني هذا المبلغ على لعق جراحى . وداعبنى الأمل فى العثور على مورد جديد لرزقى ، وسعيت على الأقدام راضياً باليسير . . وعرضت أزجالا ملحنة لفرقة على الكسار ، فلم تسد هذه الموارد الضئيلة حاجتى !

وجاءتنى رسالة من شقيقى إسماعيل كال لى فيها التقريع المر . ثم التقيت بصديق الطفولة محمد كريم ، فأعلمنى بعزمه على السفر إلى روما ليرتوى من ينبوع فن السينما ،

فأثارهذا فيّ الرغبة فى الترحال إلى بلد لا ينعتون فيه الفنان بنعوت : (الصايع والعاطل والخايب) ، واستحسنت الفكرة ، ثم تضخمت فسيطرت على مشاعرى .. لكن كيف السبيل إلى تحقيقها وأمامى عقبتان :

الأولى خلو يدى من تكاليف السفر ، والثانية كليوبى . . هيهات ، هيهات أن أتخلى عنها وأتركها فريسة الوحدة والعوز والألم :

أرى ماء وبى ظمأ شديد

ولكن لا سبيل إلى الورود !

الانحطاط الخلقى والانحلال فى البيئة الفنية

ومما عزز رغبتى فى الرحيل ، ما لاحظته من الانحطاط الخلقى والانحلال فى البيئة الفنية . . والمهنة عادة تسمو فى نظر الناس إذا ترفع محترفها عن الابتذال . فقد حدث أن ألح عليّ الأستاذ عزيز أن أصحبه إلى (غرزة أو محششة) بعد أن أطنب فى تأثير الحشيش على شحذ القرائح ونسيان الآلام . ورغبة منى فى تجربة ما لست أعرفه ، فقد أطعته ، وإلى بؤرة قذرة صحبته ، وكم هالنى أنى وجدتها مكتظة بكبار الفنانين ، جالسين على مقاعد خشبية عتيقة أوعلى الأرض ، وعيونهم زائغة ، فاقدى الرشد والوعى ، يمر بهم حامل الجوزة يسحب منها كل بدوره « نفساً » من الدخان ، دون أن يأنفوا أو أن تعاف نفوسهم ما قد يعلق بالقصبة — التى تمر على كل فم — من لعاب وجراثيم معدية . . ولكى لا أسيء إلى شعور الداعى اضطررت صاغراً إلى مشاركتهم فى مجالهم .

وما إن سحبت نفساً حتى كادت رئتاى تتمزقان ، وأصابنى اختناق وسعال مما أثار ضحكهم ونكاتهم .

وفجأة هبوا مذعورين على تحذير صاحب الغرزة وهو يصيح (كبسه) . . (البوليس) . . وركض كل منهم يحاول الإفلات من البوليس . . وسحبنى عزيز من ذراعى فتلقفته راكضاً . ولما كنت رياضياً فقد قفزت من فوق حائط الغرزة لأنجو بنفسى . أما مضيفى الفنان الكبير ، وقد سبق وذكرت أنه ضعيف النظر ، فقد التقى فى الظلام الدامس برجل اعتقد أننى هو فصرخ (اهرب ليمسكوك) وعندها قبض عليه الرجل قائلا : « مرحباً . . أنا ضابط البوليس ! » .

وكان الرائد المسرحى عزيز عيد يميل إلى البوهيمية . .

اتخذ ذات يوم بالاشتراك مع ممثل فى سنه ، كان يدعى على يوسف ، من غرفة فى فندق متواضع بحى الحسين (كان يدعى الكلوب المصرى) مستقراً له عندما ضاقت به سبل العيش . وكان الاثنان ينامان على سرير واحد للاقتصاد . وكان أجر الغرفة بضعة قروش فى اليوم .

ذات ليلة وقد ملأ رأسهما (الكيف) عادا كلاهما إلى الغرفة للنوم ، وجلس أحدهما على طرف السرير من جهة اليمين وظهره إلى زميله الذى جلس على طرف السرير نفسه من الجهة الأخرى . وبدآ يخلعان ملابسهما ، وقد اشتدت بهما (السلطنة) فنسيا أنهما على سرير واحد . . صاح عزيز :

عزيز : يا على . . دا باين فيه واحد غريب جنبى فى السرير . .

أجابه على مترنماً :

على : ونا كمان .

عزيز : دا عاوز ينام جنبى . .

على : ونا كمان باينه عاوز ينام جنبى . .

عزيز : اسمع يا على زق اللى جنبك ونا حا أزق اللى جنبى . . هيلا هوب . .

علي : يا عزيز أنا وقعت اللي جنبي . . !

أجابه عزيز وقد سقط على الأرض من دفعة علي يوسف :

عزيز : ونا اللي جنبي وقعني ! !

بعت أساور مربيتى ، لأشترى تذكرة سفر!

هكذا كانت حالة الوسط الفنى ، وانحلاله ، مما ضاعف من رغبتى فى السفر إلى روما — مهد الفنون — لأنهل من ينبوعه المتدفق ، ثم أرجع إلى وطنى ، لأرد اعتبار الفنان وأنشر وعى أسمى فن فى الوجود .

ولكن ، ممن أستمد العون وأنا خاوى الوفاض ؟ كنت أعرف أن مربيتى « داده رقية » تدخر بعض المال ، وكانت قد سافرت إلى بلدتها فى الصعيد ، لتوارى زوجها التراب . . وساءلت نفسى : « ترى . . هل عادت ؟ »

ولشدة تلهفى لتحقيق حلمى اتصلت تليفونيًّا بالمنزل لأسأل وأتحقق ، ومن حسن حظى كانت وصفية هى التى ردت على التليفون . وبالشدة طربى عندما عرفت أن داده رقية وصلت بالأمس ، فأعلمتها برغبتى فى لقائها .

حضرت داده رقية على عجل مع وصفية ، متلهفة لاحتضانى . ولم يخب فيها ظنى . . فما إن فاتحتها بعزمى على السفر حتى خلعت من معصميها أساورها الذهبية وأعطتنى إياها عن طيب خاطر . . فقبلتها شاكراً ، واستحلفتها أن تخفى الأمر عن أمى ومنيتها بأنى سوف أجنى من هذا الاغتراب الوقتى عفو والدى ، وأن غيبتى لن تطول . . .

لم أضيع لحظة واحدة ، فسارعت إلى بيع الأساور بمبلغ ثلاثين جنيهاً ، أعطيت كليوبى النصف ، وأقسمت لها بأنه لن تمر غير أسابيع معدودة وأرسل فى طلبها ،

وزينت لها العيش فى أوربا مهد الروائع . . ولثقتها بمواهبي وافقت على الفكرة وارتضت الفراق ما دام لن يطول .

ابتعت تذكرة سفر بالدرجة الرابعة على ظهر الباخرة الإيطالية « حلوان » ولم يبق فى جيبي سوى تسعة جنيهات .

ودّعت كليوبى وأنا أردد قول الشاعر :

ودعتهـــا وبودى لو يودعنى
صفـــو الحياة وأنى لا أودعها !

على ظهر الباخرة . . إلى ميلانو

أقلعت بى الباخرة من الإسكندرية نحو المجهول ، وما إن أخذت معالم عروس البحر المتوسط تصغر وتتباعد حتى تداعى تماسكى وأوشكت أن ألقى بنفسى فى اليم لأعود إلى الشاطئ الحبيب سابحاً . . لكننى تراجعت أمام الصدمة التى ستصيب أمى. كما أننى لا أحسن السباحة .

كنت أنام فى العراء على ظهر الباخرة ، ولم تكن الحرب الطاحنة (الحرب العالمية الأولى) قد وضعت أوزارها بعد ، ولو أن ألمانيا كانت قد بدأت تنهار .

وخشية الغواصات بطوربيداتها – التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط تتصيد مراكب الحلفاء وتضرب ضرب عشواء – كنا نمضى الليل فى الظلام الدامس ، والباخرة تشق بحر الخوف والموت .

مضت ليلتان وأنا ألتحف النجوم ، وأتدثر بالعراء ولفح الرياح الباردة ، بدون أن يكون معى غطاء أحتمى تحته من الصقيع الفظيع .. ونزلت فى (تريستا) بسلام ، وحملت حقيبتى بنفسى لأقتصد أجر الحمال ، وبالإشارة والإيماء استدللت على القطار الذاهب إلى ميلانو . ولا أعرف ما الذى دفعنى للسفر إلى ميلانو ، فقد كنت أقصد روما ! لكننى عرفت أن ميلانو واقعة فى منتصف الطريق ، فاستبدلت بالجنيهات التسعة ليرات إيطالية ، وكانت الليرة تساوى قرشاً .

فى ميلانو : رأساً إلى المسرح

وكان القدر هو الذى ساقنى إلى هناك . . كانت الشمس لم تشرق بعد عندما وطئت قدماى أرض ميلانو ، التى غمرها الضباب ، فتلمست طريقى إلى خارج

المحطة الكبيرة ثم وقفت أتلفت يميناً ويساراً . . وأغلق على : فلم أدر أين أنا ؟ . . نظرت أمامى فإذا حوذى بعربته الحنطور المغلقة «كوبِّيل» يترقبنى كأنه يدعونى إلى الركوب فركبت . سارت العربة .. وكان لوقع حوافر الخيل الرتيب على أرض شوارع ميلانو المبلطة بالحجارة رنين مقبض . .

. . أين أنا ؟ ومن جاء بى ؟ لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفنى ولا مكاناً معيناً أقصده ، ولا أعرف اللغة الإيطالية — سوى كلمتى : بونجورنو ، وبوناسيرا .

طال المسير ، وكان الحوذى قد أدرك أننى أبحث عن فندق ، فوقفت العربة أمام بناء شامخ ، وصاح الحوذى : « ألبرجو » ، فالتفت وفهمت أن ألبرجو معناها فندق .. وخفت من عظمة البناء ومظهره الفخم ، وأيقنت أن النزول به لن تحتمله ميزانيتى المحدودة ، وأشفقت على جنيهاتى القليلة ، فأومأت للحوذى الذى فهم بالإشارة أننى أقصد فندقاً متواضعاً . صاح فى الخيل : « أوب » ، فانطلقت العربة وأنا أرقب يمينى ويسارى علنى أعثر على ضالتى .

حانت منى التفاتة ، ولاح لى خلف الضباب مدخل مسرح ، وبشعور آلى طلبت من الحوذى أن يقف . قلت له : « ستوب ! » ، فشد لجام الخيل .

آت من الشرق السحيق !

نزلت من العربة وصرفت الحوذى الذى حاول مغالطتى ، لكنه لم يفلح لأنى لم أفهم احتجاجه . قرأت على « اليافطة » اسم تياترو « إيدن » .

هتفت فى أعماقى : « هذا هو بيت القصيد ، والمحراب الذى حججت إليه من الشرق إلى الغرب . . » وحملت حقيبتى ، وأمام مدخل الفنانين جلست فوق الحقيبة وكأننى أجلس أمام باب الفردوس .

. . لا أعرف كم مضى علىّ من الوقت فى جلستى . كان الضباب قد تبدد وارتفع قرص الشمس ، وظهر أمامى ميدان واسع كثير الحركة .

حضر رجل وأخرج من جيب سترته مفتاحاً . ها هو ذا يضعه فى ثقب الباب . . قلت لنفسى : لا بد أنه من موظفى المسرح.

هببت واقفاً كأننى وإياه على موعد . . نظر الرجل إلى متفحصاً . . اقتربت منه . . سألنى بالإيطالية ، ولم أستطع الإجابة . أدرك أنى غريب . أعاد السؤال بالفرنسية . . أشرت : لا أعرفها . . كرر السؤال بالإنجليزية الركيكة . .

جاء الفرج . أجبته :

— إنما أقصد مسرحاً ، فأنا آت من الشرق السحيق وأهوى الفن ، وأتوق أن أنهل من ينبوعه العذب . .

بدت الحيرة على وجه الرجل ، ثم الإشفاق .. وكان سمح الوجه ، وبعد تردد دعانى إلى الدخول . . هأنذا على خشبة المسرح الحبيبة . قدم لى مقعداً وذهب لعمله .

« لينا » و « لويجى »

تقدمت إلى الستار الكبير وأزحته ، فبدا لى التياترو الكبير بمقاصيره المذهبة ذات الطبقات الأربع .

تملكتنى رهبة أين منها رهبة المعبد ؟ ! . . ثم عدت إلى الرجل . . ووصل غيره من العمال . ها هو ذا يصدر لهم الأوامر ، فعرفت أنه رئيسهم .

.. وبدءوا ينشرون قماش المناظر على الأرض ويحضّرون الأخشاب والشواكيش ، فخلعت سترتى فى الحال بدون أن أتلقى دعوة لأشاركهم العمل، ابتسم الرجل، وأشار

زلى رفاقه كى يمنحونى هذه المتعة ، وظللنا ندق بالشواكيش ونهيئ المناظر حتى الظهر. وأخذ العمال ينصرفون . . .

تقدم منى الرجل وقال :

— هذا موعد الغداء . ثم سار بضع خطوات وعاد يسألنى عندما رآنى لا أتحرك:

— ألا تريد أن تتناول طعاماً ؟

— أين ؟

— هناك مطاعم صغيرة كثيرة بجوار التياترو. ضع حقيبتك فى غرفتى . وأمسك بذراعى . . وما إن خرجنا من باب الفنانين وأغلق المسرح حتى صاح :

— تعال معى يا ولدى . . أنت ضيفى اليوم ، وأدعوك إلى تناول الغداء فى منزلى ، وسيكون لدينا وقت لنتحدث .

ركبنا الترام، وفى حى قديم نزلنا ، ثم صعدنا درجاً محطماً ، ودق الرجل باباً ففتحت له سيدة فى مثل سنه ، قدمها لى ؛ ففهمت أنها زوجته .

دار بين رئيس العمال وزوجته حديث قصير استنتجت منه أنه قص عليها ما حدث ، فرحبت بى . وقال الرجل بالإنكليزية :

— اسمها لينا ، وأنا اسمى لويجى ، وأنت؟

— يوسف

— جوزيبى (ترجمة اسم يوسف بالإيطالية) .

جلسنا إلى المائدة وصب لى فى كوبى نبيذاً وسألنى :

— ووطنك ؟

— إيجيبت .

— آه . . إيجيتو . . فى صحة إيجيتو، يا جوزيبى.

وقرع كأسه بكأسي ، ورأيت من اللياقة أن أشاركه ترحيبه ، ورفعت كوبي صائحاً :

— إيطاليا .

- فيفا .

جوزيبي . . أنت سعيد الحظ !

وأردف الرجل :

— آه . . إيجيتو . . كايرو . . بلاّ . . كايرو ، زرتها مرتين مع فرقة فالكوني للأوبرتا ، على مسرح يدعى «الكورسال» صاحبه إيطالي من « فيرونا » ، يدعى « دالباني » .

— نعم . . الكورسال ، أعرفه . .

— بلادكم عريقة ، ومصدر الحضارات . هل تنوى دخول معهد التمثيل هنا ؟

— أيوجد معهد للتمثيل في ميلانو؟

— معهد عال للتمثيل والموسيقى .

— وما اسمه ؟

— فيلودراماتيكا — ميلانو Philodrammatica Milanese إنه أكبر معهد في شمال إيطاليا . . وتتخرج منه فحول . .

— يا حبذا . هذا كل مقصدى . .

— ألك معارف في ميلانو ؟

— لا .

— جوزيبي ، أنت سعيد الحظ ، ستحضر الليلة من خلف الكواليس مسرحية

« مستر فو » التي اشتركت معنا فى ترتيب مناظرها . إن فرقة تمثيلية كبرى ستقوم بالتمثيل ، بطلها ممثلنا العظيم « أميديو كيانتونى » هل سمعت عنه ؟

— لا .

— إنه من العباقرة وفنان عظيم ذائع الصيت .

وظل يروى لى تاريخ الممثل الكبير وانتصاراته الفنية فى العواصم الأوربية وأمريكا الجنوبية . وقد حضرت فرقته لميلانو فى جولة بعواصم إيطاليا .

هويت على يد الممثل وقبلتها فحسبنى معتوهاً !

عدنا إلى المسرح . ومرة أخرى خلعت سترتى وساهمت فى الانتهاء من إعداد المناظر ومستلزمات المسرحية التى عرفت أن أجواءها صينية .

وقبيل ابتداء التمثيل قدم لى سنيور لويجى ساندويتشاً محشواً بلحم الخنزير ، فألقيت بالحشوة وتبلغت بالخبز . . وأردت أن أنقده الثمن فولانى ظهره . .

فى التاسعة تماماً رفعت الستارة ، ووقفت عن كثب خلف الكواليس أتتبع التمثيل بدون أن أعى من حواره الإيطالى كلمة ، لكن روعة الأداء أسكرتنى .

كان كيانتونى نحيف القامة قصيرها ، غير أنه بدا لى عملاقاً جباراً فى إلقائه وإيماءاته ، وبراعة تصويره لخلق الدور .

أنزل الستار على ختام المسرحية فدوى هتاف يصم الآذان ، فلم أتمالك وعيى واندفعت حيث وقف الفنان يمسح عرقه بمحرمة قدمتها له زوجته « بريمادونا » الفرقة ، وهويت على يده أقبلها فصاح بالإيطالية جملة فيها الامتعاض ، وتركنى ذاهباً إلى غرفته .

ضحك لويجى وقال :

— ظنك معتوهاً ! إن كانتونى معروف بغرابة الأطوار .

. . وبدأ المسرح يقفر ، والعمال ينصرفون . .

سألنى لويجى :

— هل أنت ذاهب إلى الفندق ؟

— فندق ؟ . . آه . . كنت ناسياً . . أيمكنك أن تدلنى على فندق ؟

— فى مثل هذه الساعة . . استمع لى . . لو كانت فى منزلى حجرة خالية لدعوتك الليلة للمبيت عندى . . آسف ! فليس عندى سوى غرفتين ، واحدة لى أنا وزوجتى ، والثانية لولدى أندريا . ثم حقيبتك . . أخشى عليك من أن تضيع فى شوارع ميلانو التى لا تعرفها . . عندى اقتراح . . لى غرفة فى المسرح وفيها « كنباية » ، ولو أنها غير مريحة . . إذا ارتضيت قضاء الليلة فيها . . غداً ندبر لك مأوى . . تعال معى ننقل المناظر المكدسة على « الكنباية » .

فتبعته سعيداً . . إن الحجاج يبيتون فى العراء ، وأنا أسعد منهم حظًّا ، سأبيت داخل المعبد !

أغلق على باب الغرفة ، وجلست غارقاً فى دوامة من التفكير . . ماذا يخبئه لى غدى ؟ . . واغرورقت عيناى . . وصحت : أمى . . !

أحسست بقشعريرة باردة ، فسحبت قماش أحد المناظر والتحفت به . غرقت فى نوم عميق ، بالرغم من خشونة الفراش وصلابته ، إذ أن تعب الرحلة أضنانى . فلم أفق إلا على طرقات السنيور لويجى الشديدة . استفقت مذعوراً تائهاً ، ثم فتح الباب .

— أما زلت نائماً ؟

— كم الساعة ؟

— التاسعة ، أنت معذور . كنت مجهداً . هيا ارتد ثيابك وسنشرب القهوة فى

المقصف المجاور للتياترو . جلسنا به نتسامر. كان السنيور لويجي شعلة من النشاط وتقديس الواجب ، فقمنا للحال لإعداد مناظر مسرحية الليلة . ومرة أخرى دعانى إلى الغداء ، فاشترطت أن أدفع ثمناً لطعامى ، وبعد إلحاح منى اتفقنا أن أدفع ليرتين عن كل وجبة .

وحدى عند فتاة من تورينو !

وخلال التمثيل أفهمني لويجي أنه اتفق مع إحدى الممثلات الثانويات على أن أشغل غرفة فى بيتها الصغير لقاء مبلغ شهرى زهيد ، هو ١٠٠ ليرة مع الإفطار .

كانت الفتاة جميلة تتقد فتنة ، وكانت تسكن بمفردها ، وهى من مواليد تورينو .

حملت حقيبتى واصطحبتها فى عربة ، وكانت لا تعرف لغة سوى الإيطالية .

أومأت إليها بلسان الخرس أنى لم أتناول طعاماً ، فأجابت بالإشارة أن عندها ما يلزمنا . كان مسكنها واقعاً فى زقاق ضيق طويل كالدرب ، وليس به مصعد ولا ضوء ينير السلالم ، فظلت تشعل ثقاباً بعد ثقاب ، وأنا أحمل حقيبتى ، وصعدنا طبقة بعد طبقة ، حتى كادت تزهق أنفاسى ، وكأنه الطريق إلى بيزنطة .. ! فى حين كانت هى تقفز كالغزال ضاحكة ، حتى وصلنا إلى الطابق الرابع . .

دخلنا وأضاءت الفتاة الكهرباء ، فرأيت أثاثاً أنيقاً برغم بساطته ، وأشارت إلى باب ثم اندفعت داخلة غرفتها . لاحظت أن جدران « الصالة » الصغيرة مغطاة بالكثير من صور الأرتستات الفوتوغرافية ، أما غرفتى فكانت صغيرة ضيقة ، وليس فيها سوى ما يشبه الفراش ومقعد واحد ، وليس فيها شباك ، ولا خزانة للثياب . لكن ماذا يهم ؟ إنه مأوى على كل حال .

غلالة رقيقة كزرقة السماء

سمعت وقع أقدام تروح وتجيء وهى تغنى ، وإذ كنت أخرج من حقيبتى بيجامتى ، نادتنى :

— سنيور جوزيى . . منجيارى .

هذه الكلمة فهمت معناها بدون صعوبة ، فهى من الألفاظ الأجنبية الشائعة فى القاهرة ومعناها : الأكل .

ارتديت بيجامتى وخرجت لأرى على المائدة التى تتوسط الصالة زجاجة نبيذ وجبناً ولحماً مقدداً . وعرفت للوهلة الأولى أنه لحم خنزير ، والعياذ بالله !

كانت الفتاة فى غلالة رقيقة لونها كزرقة السماء ، تشف عما تحتها من قالب متقن الصنع ، ولا تستر إلا اليسير ، وكأنها إطار لصورة خليعة تعمد الرسام تجسيد مواضع الإثارة فيها .

غضضت النظر حياء . وصبت لى نبيذاً ، وسخرت منى عندما امتنعت عن احتساء الكأس وتناول الجامبون . واكتفيت بقطعة من الجبن أسد بها رمقى .

كانت كلما حركت ذراعها برز النهدان من شق الثوب ، كفضوليين يتطلعان من نافذة صغيرة ثم يتواريان بدلال . وتحاشياً من التهور غضضت البصر ، وشغلت عينى بالتطلع إلى ما على الحيطان من صور فوتوغرافية ، وكانت غالبيتها للفتاة فى جلسات إباحية وأوضاع جنسية عارية !

من يكون هذا الضيف ؟

دق الباب ، فهبت كأنما هى على موعد مع الطارق ، وفتحت لرجل تجاوز سن الشباب ، حسن البزة والهندام ، ربع القامة ، فتأبطت ذراعه وقادته إلى

حجرتها ، وهو يتمايل مخموراً . ثم سمعت صرير القفل . ترى من يكون هذا الضيف الذى هبط فى غسق الليل ؟

لا يعقل أن يكون قريباً لها أو زوجاً ! ! يا لى من متطفل فضولى أتدخل فيما لا يعنينى ! رأيت من واجب الضيافة أن آوى إلى غرفتى ، وأستكن فيها ، فقد فطنت أن المسكن ليس به إلا غرفتان ، وتركت على المائدة ثلاث ليرات ثمن عشائى ومائة ليرة أجرة الغرفة مقدماً .

أخرجت من حقيبتى كتاب «برليتس سكول» معلم اللغات بغير أستاذ ، لأستظهر من كلماته كل ما تستطيع الذاكرة أن تعيه . واعتزمت أن أنفذ خطة ، وهى استذكار ١٠ كلمات إيطالية وخمس عبارات كبرنامج يومى . وكانت الوسيلة التى ابتكرتها أن أكرر كتابة كل كلمة أو جملة عشر مرات على الورق لترسخ فى ذهنى .

آهات وتأوهات .. وكأننا ما سمعنا .. وما رأينا !

بدأت أنفذ هذه الطريقة منذ تلك الليلة . وبينما أنا غارق فى دراستى بدأت تطرق سمعى آهات وتأوهات ونغمات ، من السهل أن يفهم السامع مصدرها وأسبابها ، وكانت تخترق الجدران آتية من غرفة الفتاة . . فضايقنى هذا وأزعجنى ، وأرقنى ، وأهاج الدماء فى عروقى الشابة .

استمرت المناغشات وأنا قابع فى فراشى (كالفأر الذى يشم روائح الطعام الشهى وهو حبيس) . . ثم تنفست الصعداء عندما شعرت بالباب الخارجى يفتح ويغلق ، وأقنعت نفسى أن الرجل قد يكون صديقها أو أليفها . .

ولم أشأ أن أطلع السنيور لويجى على ما حدث ، واعتزمت أن أكون كذلك التمثال الصينى الذى نحته فنان فيلسوف بصورة ثلاثة قردة لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم .

كما لم تعد تثيرني التأوهات الليلية ، بل أضاف تكرارها حفظي لكلمات إيطالية جديدة ، وفهمت معانيها !

تعددت روائع المسرحيات التي كان يقدمها كيانتوني ، ونويت أن ألفت نظره إليّ ، وكنت دائماً حريصاً على مناولته المنشفة التي جرت عادته أن يمسح بها عرقه ، إلى درجة أنه إذا احتاج إلى المنشفة وهو خلف الكواليس صاح :

— أين الإجبسيانو ؟

. . كما داومت الفتاة واسمها كاترينا ، على استقبال زوار الليل ، مما لم يدع لي مجالا للشك أنها بالرغم من عملها في المسرح تحترف شيئاً آخر بجوار مهنة التمثيل ، واعتادت أذناي سماع المناغشات وطرقعات القبلات ، فرددت لنفسي المثل المشهور : « قالوا للأعمى : الزيت غلي ، رد قال أمر لا يعنيني ! » . .

كاترينا تغيب عن الوعي ، وأنعشها فتشكرني . . .

وذات ليلة ، وأنا قابع في غرفتي أتابع استذكار كتاب برليتس ، فوجئت بصيحات كاترينا ، وتضارب وعراك ، ثم صرخات استنجاد ، فدفعتني نخوتي أن أسارع إلى نجدة الفتاة وإنقاذها ، وإذا بشبح يخرج مندفعاً خارج المسكن ، والفتاة تتوجع وتجهش بالبكاء وهي تشيعه بالشتائم ، ثم ظهرت أمامي عارية ، وما لبثت أن سقطت على الأرض في شبه إغماء مصحوب بتشنجات ، فحملتها بين ذراعي إلى فراشها ، وصببت دورق ماء وجدته قرب مخدعها ، على وجهها . وعثرت على زجاجة كولونيا ، فجعلت أدلك بعطرها وجهها وصدرها لأنعشها ، وأصفع خديها برفق . . واستمرت عملية الإنعاش وقتاً حتى تحركت أهدابها الطويلة ، وما لبثت أن فتحت عينيها ، وأمسكت يدي تضغط عليها بحرارة ، حتى كادت أظافرها الطويلة

المخصبة أن تنفذ فى لحمى . وهى تردد : « جراتسى . . جراتسى » . . وبغتة طوقت عنقى بذراعيها وألصقت نهديها بصدرى ، وانقضت على شفتى بقبلات نارية بهيمية . فأسكرنى رحيقها من غير خمر ، وكان ما لست أنساه . . وحتى مطلع الفجر .

الزهد .. فالفضيحة !

زهدت كاترينا — بعد تلك الليلة — فى استقبال زوار الليل ، وسهلت علىّ علاقة الحب الجديد تعلم الإيطالية ، وتذكرت نصيحة صديق فى القاهرة عندما قال لى : « إن خير مدرسة لتعلم لغة هى أحضان المرأة ! » . .

لم تنسنى هذه المغامرة الطارئة كليوبى ، فكنت أبعث إليها كل يوم برسالة تفيض حبًّا ، وتبعث فيها الصبر والجلد والأمل .

أقلقنى وأثار شكوكى أن كاترينا كانت تستأذننى فى عدم اصطحابى إلى المنزل بعد التمثيل ، مختلقة بعض الأعذار . وتعود فى الفجر لتنام حتى الظهر .

ذات ليلة طال انتظارى ولم تعد كاترينا ، فاشتد قلقى عليها ، وخشيت أن يكون قد أصابها مكروه ، وانتظرت حضورها بفارغ الصبر إلى المسرح لأداء دورها ، لكنها لم تعد . وطالت غيبتها ، فاضطررت أن أسأل السنيور لويجى عنها عساه يرشدنى أو يخبرنى عن السبب ، فنظر إلىّ طويلا وقال :

— أسفاه ! ضلت كاترينا الطريق وانغمست فى الرذيلة ، وكنا على غير علم بسوء سلوكها ، وقد علمنا أنها ضبطت فى بيت سيئ السمعة ! . .

لم أستغرب النبأ ، وأصبح الشك يقيناً . وانفردت بالمنزل أمضى فيه الليالى وحيداً يؤرقنى السهاد .

الفنان الكبير يباركني

توطدت العلاقة بيني وبين السنيور لويجي، ففتحت له مغاليق قلبي ، ومن أي أسرة انحدرت . . فأجابني :

— أحسست بعراقة منبتك من أول لقاء ، وأعجبت بحبك للفن إلى حد هجرك وطنك وأهلك ، وأزف إليك بشرى . . إن السنيور كيانتوني قرر لك أجراً ككومبارس ومساعد في المسرح .. عسى أن يعاونك هذا على النفقات طيلة عمل الفرقة بميلانو .

وكأنه أراد أن يمهد لي طريق المستقبل ، فقد ناداني كيانتوني ذات يوم وفاجأني بأن السنيور لويجي أطلعه على سري الذي كنت أكتمه. ولن أنسى ما حييت حديثه معي الذي اختتمه قائلا :

— اعتبرني يا جوزيبي في مكان أبيك، وسأبذل كل جهدي في تحقيق حلمك ، وسأعطيك رسالة إلى عميد «الكونسرفاتوريو دراماتيكو ميلانيزي»، كي تلتحق بالمعهد.. وعليك أن تتمكن من اللغة الإيطالية . المعهد سيفتح أبوابه بعد شهرين ، وفي المعهد تدرس الفن المسرحي بكل حرفياته وأصوله ومناهجه العلمية، تجمع بين دراسة التاريخ وعلم النفس والبلاغة والفلسفة والأدب المسرحي اليوناني والإغريقي والموسيقى و«والسولفيج» إذا رغبت ، ودبلومه العالي يمنحك لقب : « بروفيسوري » أي أستاذ، ومدة الدراسة فيه من ثلاث إلى خمس سنوات ، وبإمكانك اختصارها إلى ثلاث لو صحت عزيمتك على تكريس كل وقتك للتحصيل .

. . وقبلني عند الوداع ، وسافرت فرقته إلى تورينو ، ووعدني بالعمل والتدريب بفرقته إذا رغبت خلال العطلة الصيفية ، ومنحني هو والسيدة البريمادونا زوجته صورتين فوتوغرافيتين لهما . . وأيقنت أن الخالق يهيئ لخلقه دائماً من يرعاهم . . ويحنو عليهم .

وما إن رحل أستاذى العظيم حتى اقترح على السنيور لويجى الذى أصبحت كفرد من أسرته أن ألتحق بمعهد مسائى مجانى لتعلم الكهرباء والنجارة ، وهو مخصص للطبقة الفقيرة من الصناع الذين يرغبون فى زيادة معلوماتهم ، وخريجوه يمنحون شهادة حرفية .. واصطحبنى إلى الإدارة ، وكان اسم المعهد « أومانيتاريا » ، أى الإنسانية .

علمت من سكرتير المعهد أنه يتحتم على طالب الالتحاق أن يقدم شهادة إملاق (فقر) وهو يقبل جميع الجنسيات ، فأسقط فى يدى . .

بيد أننى من الحيرة اهتديت إلى حيلة علها تنطلى عليهم . .

حصلت على فرخ ورق من نوع ما يستعمل فى « العرائض » وملأت « العريضة » عن آخرها باللغة العربية ، وحرصت أن أدون فيها أننى يتيم الأبوين بلاعائل ولا قريب ، وتاريخ مولدى وما درسته من علوم . . النهاية أتقنت التزييف خشية أن يواجهونى بمن يعرف العربية ، وأنهيت العريضة بأختام استعنت بها ، وطوابع بريد مصرية ، واستعنت بفلة زجاجة (غطاء من الفلين) كأختام ثم ختم من الشمع الأحمر مطموس المعالم ، ومهرتها بإمضاءات عديدة ، وتقدمت بها بشىء من الاطمئنان إذ لم يكن للحكومة المصرية فى تلك الأيام سفارات أو قنصليات تمثلها ، ولن أخشى شيئاً إن لم ينجح تدبيرى أو رفض طلبى .

تقدمت بالعريضة المزيفة لسكرتير « الأومانيتاريا »، وما إن ألقى عليها السكرتير نظرة حتى صاح :

— ما هذا ؟ لغة صينية ؟

— لا . . لغة بلادى . . إنها عربية . .

— ومن أين لى معرفة العربية ؟

ـ هكذا تكتب العرائض عندنا بلغة البلاد . .

أجاب بعد تفكير :

ـ انتظر . هنا موظف يعمل فى وظيفة كتابية سأستدعيه ليقرأ لنا هذه العريضة الهيروغليفية ! فهو من مصر . .

سألت مذعوراً ، وقد خشيت اكتشاف أمرى :

ـ أهو مصرى ؟

ـ لا ، إنه إيطالى من مواليد القاهرة ، وقد تعلم فى معاهدها . .

وضغط على زر جرس ، وطلب من القادم استدعاء السنيور « بتسوتو » . وأشار إلى مقعد ، فارتميت عليه قبل أن أسقط أرضاً .

جال بخاطرى كى أنجو من هذا الحرج أن أطلق ساقى للريح ، وقبل أن أنفذ الفكرة دخل شاب فبادره السكرتير بقوله :

ـ سنيور بتسوتو ، هذا شاب مصرى قدم لنا شهاده فقر طلبناها منه لأنه يريد الالتحاق بالمعهد . اقرأها وفك لى ألغازها . .

يا روايح مصر . والله وحشتنى قوى !

أمسك الشاب بالعريضة وأنا أرتجف من العاقبة ، ثم ألقى علىّ نظرة خاطفة وعاد مرة أخرى إلى العريضة يتفحصها ، وتكرر هذا وأنا أزداد هلعاً ، ثم التفت لى قائلا :

ـ حضرتك مصرى ؟

ـ أيوه .

ـ يا مرحب . . منين جبت الشهادة دى ؟

ــ الشهادة اللى طلبوها .

عاد مرة أخرى يمعن النظر فى خطوطها ، واقترب منى وهمس :

ــ مكتوب فيها إيه ؟

ــ مكتوب . . ! (متلعثماً) أنى من أسرة فقيرة . .

ــ كده . . بس قول لى بالعربى معناها إيه ؟

ــ معناها ، إنى عايز أدخل المعهد مجاناً . . (سألته بالعربية إنت ما تعرفش تقرى عربى ؟)

ــ تمام يا روايح مصر . . والله وحشتنى قوى !

وتركنى مسرعاً وذهب إلى السكرتير ، وتحدث إليه ، وقد فهمت فحوى ما قاله ، فقد أمسك السكرتير بالقلم وأشر على الشهادة ، وعاد بتسوتو مرة أخرى إلى وصاح :

ــ مبروك . . السكرتير وافق . .

لم أصدق سمعى ، وفهمت تواً أنه يدعى معرفة اللغة العربية ، فانقلب الفأر أسداً.

ــ الجمعة الجايه حا تبدأ الدراسة ، أنا عايز أقابلك . . إنت الليلة فاضى ؟

ــ أنا باشتغل ميكانيست فى تياترو عدن (إيدن) . .

ــ وبتخلص الساعة كام ؟

ــ بعد ١٢ مساء . .

ــ كويس قوى . عارف القهوه اللى على الناصية المواجهة للتياترو ؟ دى بتفتح للساعة ٢ صباحاً . . حستناك هناك لحد ما تخلص ، وبعدين أخدك نهيص يابو حجاج .

ــ ده ده . . دا انت ابن بلد . . .

ــ ابن بلد ونص . . دانا من شبرا . .

ــ . . . . كده ؟

تركت معهد الأومانيتاريا وأنا لا أصدق ما جرى لى .. لكن هناك أمراً حيرنى :
لماذا كتم « بتسوتو » الحقيقة عن السكرتير ؟ وما الذى دعاه إلى الاشتراك معى فى سبك الحيلة ؟ وجدته بانتظارى بعد التمثيل ، فاقترح تمضية السهرة فى بار قديم اسمه « تافرنا » وهو فى طبقة أرضية ، وقد حولها صاحبها إلى ما يشبه الكهف . وإمعاناً فى خلق الجو ، جعل السقف كنسيج العنكبوت ، وجلسنا . طلب « بتسوتو » نبيذاً فجاريته .

— أنا حسقيك نبيذ معتق عمره ٤٠ سنة . .

— يا خبر ! وده يبقى طعمه . . جنسه إيه ؟

— دلوقت تدوق . ما فيش كده !

جاء صاحب التافرنا العجوز بزجاجتين يكسوهما التراب ، وكانت الحانة العجيبة تعبق بدخان السجائر التوسكانى ومعظم ، من فيها يترنح سكراً .

اعتلى أحدهم مائدة ورفع عقيرته بأغنية ، ردد معه رواد الحانة مقاطعها . استطبت طعم النبيذ المعتق ، فقد كان حلو المذاق ، ليس فيه لذعة الحموضة . وطالت السهرة وتعددت القنانى ، وحلت « الخمرة » لسان بتسوتو ، فاعترف لى أنه طرد من مصر ، لأنه من أوائل الذين اعتنقوا المبادئ الشيوعية ، وأن البوليس المصرى قبض عليه متلبساً بإلقاء خطبة ثورية ضد النظام الرأسمالى فى سوق الخضار فى ميدان العتبة الخضراء فى القاهرة .

ولما كانت المبادئ الشيوعية محرمة ، ويعاقب القانون المصرى المحرضين على انتشارها ، فقد رحلوه إلى موطنه الأصلى فى إيطاليا .. ثم انفجر مقهقهاً ، فسألته عن السبب فأجاب :

— بالك العريضة اللى قدمتها انت النهاردة الصبح لإدارة المعهد — وعلى فكرة

دا معهد تابع للحزب الشيوعى الإيطالى — كلام فى سرك ما قريتش منها ولا كلمة لأنى ما اعرفش أقرا عربى . . وهمّ فاكرينى ما دام مولود فى مصر ، لازم اعرف القراية والكتابة العربى !

وصاح المحقق فى وجهى : أأنت الذى قتلتها ؟

بالرغم من أن رأسى دوخه الشراب ، فقد فهمت سر معاونته لى فى خديعة السكرتير . وتملكتنى نوبة ضحك متواصل ، وكل ما همنى أنى التحقت بالمعهد ولم أهتم لأى شىء آخر . .

عندما تركنا البار ، ولفحنا الهواء ، تضاعف تأثير النبيذ المعتق ، وسرنا كلانا نتطاوح ونتساند ونتخبط ، حتى بلغنا ساحة كاتدرائية « إلدومو » الشهيرة ، وفى مطلع الفجر سيطر السكر على تصرفات بتسوتو ، فاقترح على أن نتراهن فى مباراة غريبة وهى أن نصعد سلالم الكاتدرائية وأن يتدحرج كل منا على درجاتها ، والفوز لمن يسبق !

كانت الخمر قد لعبت برأسى فوافقته ، ولا أعرف كيف انتهت المباراة الشاذة ، ومن كان الفائز فى السباق ، فقد وجدت نفسى على فراش غريب مكتفاً بقميص المجانين والسكارى ، الذى شلّ حركتى ، وعلى فراش آخر يتأوه بتسوتو من كسر أصاب ذراعه ! وبعد السين والجيم فى مركز البوليس والإسعاف أطلق سراحى . أما صاحبى فقد قرروا نقله إلى المستشفى .

رجعت محطماً إلى مسكنى ، وخلال صعودى الطبقات الأربع رأيت زحاماً وخلقاً كثيراً . . وأمام الشقة شاهدت بعض رجال الشرطة ، وما إن عرفوا أنى أشاطر « كاترينا » المسكن حتى قبضوا علىّ . . !

وصاح المحقق فى وجهى :

— أأنت الذى قتلتها ؟ !

فهمت لساعتى أن حدثاً خطيراً وقع . وكلمة « أساسينو » التى فاه بها المحقق كثيراً ما وردت فى المسرحيات التى كان يقدمها كيانتونى. ومعناها بالعربية « قاتل» ..

إذن هناك جريمة قتل يتهموننى بها !

أمطرنى المحقق وابلا من الأسئلة لم أفهم لمعظمها معنى ، فهب المحقق ، وأمر شرطياً قادنى من ذراعى إلى غرفة كاترينا .. ويالهول ما رأت عيناى ! مشهد يشيب له الولدان .

الفتاة مذبوحة من الوريد إلى الوريد ، ممزقة الثياب ، تسبح فى بحر من الدماء . بدرت منى صرخة فزع هائلة ، وحجبت عينى بكفى ! وصرخت : نو ! نو !

ومرة ثانية جابهنى المحقق بالتهمة ، وكان شرساً فظاً ، قاسى الملامح :

— لماذا ذبحتها ؟

وظل يكرر على السؤال . فأصابتنى نوبة بكاء ، ثم أمر الشرطى فأعادنى إلى « صالة » المسكن ، وقذف بى على مقعد .

— اعترف يا فتى . .

— نو ! نو !

— لا تحاول الإنكار ، فالتهمة ثابتة ضدك ، هل كنت عشيقها ؟

احتبست الكلمات فى حلقى .

— صفدوه بالحديد ، وانتظروا الطبيب الشرعى .

وخرج ، وأنا أتبعه مقيداً إلى مركز الشرطة .

أعاد المحقق استجوابى وفى نظراته قسوة الواثق من اكتشافه السريع مرتكب الجريمة.

ـــ لا أعرف الإيطالية .

ـــ سنأتى بمترجم . . هل تعرف أحداً يجيد لغتك ؟

كان هذا السؤال مفتاح الفرج . . كيف غاب عنى اسم « بتسوتو » ؟

ـــ نعم . نعم . . لى صديق اسمه بتسوتو .

ـــ من يكون هذا البتسوتو ؟ وما عنوانه ؟

ـــ كاتب ملحق بمعهد الأومانيتاريا .

ـــ سنرسل فى استدعائه .

شارع الدعارة

وأصدر أوامره ، ثم عاد يسألنى بخشونة :

ـــ ما الذى حملك على سكنى هذا الشارع ، ومتى تعرفت على الفتاة ؟

ـــ كانت تعمل معى ككومبارس فى فرقة كيانتونى .

ـــ ممثلة ؟ !

ـــ نعم .

ـــ إنها من بنات الهوى ، تتاجر بجسدها . . .

ـــ لا أعرف .

ـــ كيف لا تعرف أن الشارع الذى يقع فيه مسكن القتيلة هو زقاق « سان بيترو ده لورتو » ؟

ـــ أعرف اسم الشارع .

ـــ وتعرف أيضاً أنه الشارع المخصص للدعارة فى ميلانو !

ـــ لم يخطر ببالى . أنا حديث العهد بميلانو .

ابتسم فى سخرية . دق جرس التليفون ، وتحدث مع مخاطبه ، ثم وضع السماعة .

— صديقك الذى ذكرته فى مستشفى الإسعاف ، وسيأتون به حالا .

ثم هب واقفاً وظل يقطع غرفة التحقيق الكئيبة جيئة وذهاباً وهو يرصد تعبيرات وجهى وما يرتسم عليه من انفعالات بدون أن ينبس بكلمة .

فتملكنى ضيق مرهق ، ومرت الثوانى كأعوام .

طرق الباب . . ها هو ذا بتسوتو ، وذراعة المضمدة معلقة فى رقبته .

متى وقعت الجريمة ؟

ما إن رآنى بتسوتو حتى شهق ، فبادره المحقق سائلا :

— أتعرف لغة هذا المتهم ؟

— نعم . نعم . . ماذا حدث ؟

— ذبح الفتاة التى كان يشاطرها المسكن فى شارع الدعارة .

— متى ؟ كيف ؟

— البارحة .

— البارحة ! ! لكنه كان معى . . .

— كان معك . . . أين ؟

— فى بار « تافرنا » .

— وفى أى ساعة افترقتما ؟

— لم نفترق حتى مطلع الفجر .

— إذن فقد اقترف جريمته الشنعاء بعد ذلك . . هل كان مخموراً ؟

— نعم . . يا سيدى المحقق ، لكنه برىء .

ــ لا دخل لك فى هذا . .

ــ سأثبت لك أنه برىء . لقد أسرفنا فى الشراب ، وزينت لنا الخمر مباراة سخيفة ، فقبض علينا بوليس الآداب حتى اليوم التالى .

ــ إذن فقد ذبحها قبل ذلك . سيقدم لنا الطبيب الشرعى تقريره غداً .

ثم التفت إلى شرطى وصاح :

ــ زجوه فى السجن المؤقت ، الخاص بالمتهمين تحت التحقيق .

مهاجر من زغرتا ، فقأ عين نصاب !

كان فى السجن تشكيلة من النشالين والمجرمين وأرباب السوابق ، طول الليل يتسامرون تارة ، ويتشاجرون تارة أخرى ، باللكنة الميلانيزى (لغة ميلانو العامية) تختلط بشخير النيام وغناء السكارى . والذى لم يخطر ببالى هو لقائى خلف القضبان مع رجل لبنانى ، له شاربان يقف عليهما الصقر ، وكانت معرفتى بأنه أخ عربى طريفة ، فقد كان التعب والتهمة الخطيرة قد حطما أعصابى ، وكنا نقضى الليل جلوساً على دكة خشبية ضيقة ! وقد غلب معظمنا النوم ، وحدث أن مال أحدنا بثقله على جاره النائم فأسقطه أرضاً ، وهب الرجل الذى أفاق مذعوراً يسب ويلعن بالعربية ، فغمرنى الحنين وبادلته الحديث ، فقص على قصته :

إنه مهاجر من (زغرتا) كان قاصداً إلى (مونت فيسبو) فخدعه نصاب إيطالى واستولى على نقوده القليلة بحجة تسهيل هجرته ، فما كان منه إلا أن تشاجر معه وفقأ عينه جزاء لاستيلائه على نفقات سفره !

. . لم أمض خلف القضبان سوى ٤٨ ساعة ، فقد كانت شهادة « بتسوتو » قاطعة لكل شك ، وجاء قرار الطبيب الشرعى يثبت أن ذبح كاترينا وقع خلال

إقامتى فى مستشفى الإسعاف مع السنيور بتسوتو.

عزمت أن أبحث عن سكن آخر ، إلا أن السنيور لويجى وفر على متاعب البحث ، فقد أخبرنى أن ولده سافر إلى « فيرونا » ، ويمكننى — إذا شئت — أن أحتل غرفته ، إذ سيطول غيابه عن ميلانو .

لا أريد الاسترسال فى ذكر تفاصيل حياتى فى ميلانو فهى عديدة ، وكل ما أود أن أذكره هو التحاقى بالمعهد التمثيلى ، ومدرسة الأومانيتاريا ، وانكبابى على الدرس والتحصيل ، وانضمامى إلى جماعة الكومبارس فى شركات السينما لأضمن قوتى ونفقات إقامتى . . وكان أجرى من السينما وهو نحو خمسين ليرة كافياً وزيادة .

مراهقة شقراء تسبب اصطدامى بالوحش « ماشيست »

ولو استرسلت فى سرد مغامراتى لاستوجب ذلك مجلدات ، وسأقتصر على ذكر الطريف منها .

اصطدمت وأنا أعمل فى دور سينمائى ثانوى ببطل العالم الذى ظهر على الشاشة الصامتة يصارع الوحوش ، وكان يدعى « ماشيست » ، ولا شك أن الكثيرين من المخضرمين يذكرون اسمه وشهرته .

كان سبب اصطدامى مع هذا العملاق هو أن كلينا كان يغازل فتاة مراهقة شقراء مكتنزة الثديين ممن يعملون فى الفيلم ككومبارس . وأحس هذا الوحش أن الشقراء تفضلنى عليه ، فقد كان ضخم الجثة كالثور ، شرس الملامح ، مغروراً بقوته .

كان ماشيست يقوم بدور رئيس عصابة « الجمجمة » فى فيلم « الرجل الذى لا يقهر » وألعب أنا دور أحد أفراد العصابة . وألبسونا زياً خاصاً له حزام يتدلى منه مسدس محشو بطلقات (فشنك) — أى خالية من الرصاص — ينبعث عند إطلاقها

دوى ودخان كثيف ولا خطر منها إطلاقاً .

أوحت الغيرة التى أكلت قلب ماشيست أن يمحقنى فى نظر الفتاة باستغلال قوته وبطشه وجبروته ، فألقى بثيابى من غرفة الملابس ! عرفت هذا من العجوز المختصة بغرف الممثلين ، وكان الزملاء يتغامزون علىّ ، ومما جعل الدم يغلى فى عروق أن المرأة نصحتنى بعدم التحرش به ، فقد هدد وتوعد بإيذائى .. وبينما كنا جلوساً على مائدة الطعام تصادف أن واجه مقعدى مقعده ، فاصطنع حركة أسقطت كأس نبيذه إلى ناحيتى ، وأصاب ثيابى رشاش منها .

العملاق الجبان !

كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، فانفجرت كالبركان الثائر ، وجرحتنى الإهانة والتحدى السافر ، ولا سيما أن الشقراء كانت تجلس على المائدة معنا ، فسحبت مسدسى من جرابه ، وقد غشى الغضب بصيرتى ، متوهماً أن الطلقات التى فى المسدس حقيقية . فشهرته فى وجهه وأخذت أفرغ الطلقات . وإذا بقاهر الأسود وبطل العالم « ماشيست » يستجير مستنجداً ، ويهرب مختبئاً تحت المائدة وهو يصيح « الأفريكانى . . الأفريكانى » المتوحش . . ! !

قهقه الجميع ، ووضح جبن الوحش ، ولم يخرج من مخبئه بالرغم من محاولة الكومبارس إفهامه أن بارود الطلقات خال من الرصاص !

. . كان هذا الصدام الذى انخذل فيه العملاق ، عاملا على فوزى بقلب الفتاة . . وتقرب هو منى ينشد صداقتى ، وقدم لى الاعتذار عما بدا منه من نزق . وقد كشف لى هذا الحادث العارض ، أن الإيطالى عاشق قيثارة وزاهد فى النزال . . واتبعت هذه السياسة فى معاملتى لكل متعاظم منهم ، وكانت دائماً ناجحة .

الرسالة المشئومة !

نجحت بتفوق فى امتحان الانتقال بالمعهد ، ولانت لى اللغة الإيطالية ، وبدأت أستوعب معانى أشعار دانتى أليجيرى ، ومانزونى ، ودانونزيو ، وارتفع أجرى فى الأدوار الثانوية فى السينما ، فكنت أكتفى بالنفقات الضرورية لأبعث إلى كليوبى بكل ما أستطيع أن أقتصده ، مؤملاً النفس أن أجمع لها ثمن تذكرة السفر إلى إيطاليا ، ولن نفترق بعد ذلك إلى الأبد .

وصلتنى الرسالة المشئومة التى مازلت محتفظاً بها حتى اليوم ، وكانت تكتب لى رسائلها العربية بحروف لاتينية :

«مرسى على الفلوس اللى بتبعتها لى، وأنا متأكدة إنك بتحرم روحك من الأكل عشانى يا أحسن راجل فى الدنيا . . يا روحى من جوه . . وأنا مستنيه اليوم اللى أجيلك . . يارب إمتى بس ييجى اليوم ده ؟ .. بس اللى شاغل بالى إن ماما عيانة ومش بتقدر تقوم من السرير . ربنا يستر ، وحشتنى يا نور عينى ، وصورتك تملى قدامى أبوسها ميت مرة كل يوم. . اطمئن . . أنا وحياتك ما بخرج من البيت إلا لما أروح أشترى لوازم الأكل . . بكره حاخد ماما للحكيم اللى شلتنى له على ذراعك وطلعت بى السلالم يوم العملية لأنه طيب ورخيص . . وأول ما أعرف عيانه بإيه حكتبلك .. ربنا يخليك للى ملهاش غيرك فى الدنيا » .

« كليو »

الرسالة الثانية :

« الحقنى يايوسف .. أنا زى المجنونة . . أنا زى ما كتبتلك أول أمبارح .. خدت ماما على الدكتور يكشف عليها . . وبعد ما كشف عليها حتة حتة ، خدنى وخرج من الأوضة وقال لى : لازم أقولك الحقيقة لأنى لوخبيت عليكى أبقى غلطان . . أمك عندها سرطان . . كنت حقع من طولى . . مصدقتش ودانى . . قاللى الحالة مش كويسة أبداً . . فيه ورم جوه . . ولما سألته العلاج إيه قاللى : بصراحة الأدوية ما تنفعش فى العيا ده . . أنا حكتبلها حاجة تسكن الوجع شوية . . دى لازم تتعالج بالأشعة . مفهمتش يعنى إيه أشعة . قال . . زى كهربا . .راديوم . . وأنا حابعتك لدكتور اختصاصى .

أنا لوحدى . دورت على أخويا كريا كولقيته راح شغله فى المنصورة ، وادونى

عنوانه . بعت له تلغراف . أعمل إيه بس ياربى ! أروح لمين ! خايفه قوى على ماما يجرى لها حاجة . . . إلخ » .

اللجوء إلى الأهل !

بعد أن أمعنت فى التفكير اهتديت إلى حل : كتبت لها رسالة تفيض حباً وحناناً ، واقترحت عليها أن تذهب لمقابلة أحد أشقائى ، وكتبت لأحد أشقائى أرجوه أن يعاونها فى محنتها بعد أن كنت قد قررت ألا أراسل أو أتصل بأى فرد من أفراد أسرتى مهما أصابنى من عقبات ، لأبرهن لهم أننى قادر على أن أعول نفسى بنفسى . لكننى إشفاقاً على والدتى كنت أبعث لها برسالة كل شهر بدون أن أذكر لها عنوانى ، وفى هذه الأثناء وصلت إلى رسالة كليوبى التالية :

« آه يا يوسف لو تعرف اللى حصل . هى الدنيا وحشة كده : أنا قلت لك إنى بعت لكرياكو تلغراف ولما جه وشاف ماما بالحالة دى ، عيط بالدموع . وخدنا ماما للدكتور الاختصاصى اللى ادانا عنوانه الجراح . . قعد ساعتين يكشف عليها وقال لنا : « لازم أشعة . . أشعة حالا . . بس الحالة خطيرة وانتو اتأخرتو كتير » . قام كرياكو سأله : « العلاج ده لازمه مصاريف كتير ؟ » قال الدكتور : « أقله عشرين جلسة » . . وكل جلسة ٥ جنيه يعنى ١٠٠ جنيه . . أجيبهم منين ! ؟ فى طولك فى عرضك يادكتور ما فيش فايدة . مرضيش ينزّل ولا مليم . . مخى طار يا يوسف . . أنا حاسمع كلامك وأروح أقابل أخوك . فأنا ماكنتش عايزه لأنى عارفه إنهم يكرهونى . . ادعى لى يا يوسف . . »

« كليو »

أخوك غازلنى وطلب منى ميعاد !

ثم تلقيت منها الرسالة الرابعة :

« أنا مكسوفة قوى أنى أقولك حاجة حتزعلك قوى قوى ، لكن لازم تعرف اللى حصل . رحت مكتب أخوك فى شارع سليمان باشا . . اتصور يا يوسف . . قعد يغازلنى وطلب منى ميعاد . . فشتمته . غضب عنى . وأنا خارجة من المكتب لقيت الباشا واقف ، رحت مايله على إيده وبستها وقلتله إن ماما بتموت ، الله يخليه . . ادانى على طول عشرين جنيه . فضلت أدعيله » .

الرسالة الخامسة

« يوسف . . أنا مش عارفه اقولك إيه ، كرياكو أخويا جه البيت ومعاه خطيبى القديم ، كانجوس ، فانخضيت .. قاللى أخويا إنه راح قابله لأنه لازم يعالج ماما ، وإن كانجوس مستعد يدخلها المستشفى اليونانى ويجيب لها أكبر دكاتره فطردته . . وبعد ٣ جلسات كهربا ماما جالها نزيف . . جريت على المكتب قالولى الباشا سافر العزبة . ماما خلاص بتنازع . . أنا فى نار . . »

« كليو »

ماذا داخل الغلاف ؟

بماذا أجيب عن رسالتها ؟ وبماذا أنصحها ؟ لو كنت أدرك حقائق الحياة ومآسيها كما أدركها اليوم لما ترددت أن أوافق على قبول العون من خطيبها مهما كلفنى هذا من تضحية وإنكار ذات ، لأن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بنتائجها ، والجائع قد يسرق أو يرتكب الجريمة مرغماً . فقد اختطف جان فالجان ، بطل عشت ألف عام

رواية « البؤساء » رغيفاً من الخبز ليسد به رمق أسرته . . للخطيئة أحياناً مسوغاتها .

لكنني كنت بعد غرًّا أحمق لم تحنكني التجارب ، ولم تصقل مداركي السنون . وتغلبت الغيرة والأنانية على الإشفاق والرحمة ، فبخلت عليها بالرد . وإذا برسالة غلافها مجلل بالسواد . . وظننت أن الرسالة تحمل نعي كليوبي لأمها ؛ وما إن فضضت الغلاف حتى صدمت بما لم أكن أتوقع .

وبلهفة التهمت أسطر الرسالة ذات الغلاف الأسود :

« يوسف . . إنها أمي وما اقدرش أنا أسيبها تموت . . وأنا عارفاك وعارفه طبعك ومتأكدة أنك مش حتسامحني أبداً .

قبلت شرط خطيبي كانجوس ، ونقلت أمي إلى المستشفى . والجواب الأسود ده عشان أقولك : اعتبرني ميته ! أنا متأكدة إني مت في نظرك ، وإنك حتكرهني ، وتحتقرني . . ومش حاشوفك تاني . . يا مصيبتي . . وأنا اللي كنت حاطير من الفرح كل ما افتكر إني حسافر لك إيطاليا وأعيش أسعد واحدة في الدنيا . . مش قادرة أكمل الجواب دموعي مخلياني مش شايفه .

انساني يايوسف . ما تفكرش في كليوبي . وأوربا مليانه ستات . حتقابل أحسن مني . . وعمري ماحنساك . . خد بالك من نفسك . . ربنا يصبرني على بلوتي . . »

« كليوبي »

النكسة الغرامية تباعد بيني وبين القاهرة !

كانت هذه الرسالة كطعنة الخنجر . . أمسكت بالقلم ، لكن ماذا أكتب لها ؟ إنها الآن مع رجل آخر : ارتجفت أناملي وسقط القلم ، وهويت على ركبتي أنتحب وأعوي كالذئب الجريح .

مرت الأيام كئيبة وأنا أسير مترنحاً والناس تروح وتجيء .. وما زالت الحركة تدب فى الشوارع ، والضحكات تمزق أذنى. لماذا لا ينكسون الأعلام ويجللون الكون بالسواد ؟ لماذا لا يتوقف نهائيًّا عقربا الساعة ؟

باعدت هذه النكسة الغرامية بينى وبين القاهرة ، ففيها مثوى حبى ومقبرة أحلامى ، وكادت هذه النكسة تفت فى عضدى وتنال من عزيمتى ؛ لكنى تذكرت ما قد ينجم عن فشلى ، ولا مناص لى من عبور الطريق الشاق الطويل ، مهما أدمتنى الأشواك ، فأضع على قلبى صخراً وأرتدى جلباب الشوك وأكتوى بنار الفراق .

اسمى الفنى : رمسيس !

أمسكت بدفة سفينتى التى عبثت بشراعها الأنواء ، وقبلتى كانت نحو شاطئ نجاتى : الدبلوم . . الفن . . ومعشوقتى المفضلة خشبة المسرح .

بدءوا يعهدون إلىّ ببعض الأدوار السينمائية المهمة . واتخذت لنفسى اسماً سينمائيًّا هو : رمسيس .

فكرت فى الانتقال من الحى المقبض الذى يقع فيه منزل السنيور لويجى ، فاقترح على صديقى الشيوعى « بتسوتو » أن أستشير إعلانات الصحف . . ووقع نظرى على إعلان لمسكن فى فيلا محاطة بحديقة خارج ميلانو ، وكانت هذه ضالتى .. إذ كنت فى حاجة ملحة إلى الهواء الطلق ، واستنشاق عبير الأزهار. وعندما وصلت إلى هذه الفيلا كان الوقت صباحاً ، وراعتنى فخامتها وحسن رونقها ، ولو أنها تقع فى مكان منعزل فى شارع جديد لا سكان فيه .

ربة المنزل أربعينية ، ولها جمال شباب غابر !

استقبلتنى ربة الدار ، وكانت فى العقد الرابع ، عليها مسحة من جمال شباب غابر ، وأعجبت بالغرفة التى أعلنت عن رغبتها فى تأجيرها ، وهى فى الطابق الثانى وملحق بها حمام على طراز حديث وكأنها جناح مستقل . ولما سألت عن الأجر أجابت : « مائة ليرة فى الشهر » ، (ما كان يعادل جنيهاً مصرياً واحداً) .

لم أصدق أذنى ! أبهذا الأجر الزهيد يؤجر مثل هذا الجناح الأنيق ؟ وفى هذه الفيلا الرائعة ؟ ولما لاحظت دهشتى أردفت : « وبالفطور أيضاً » . فما كان منى إلا أن أنقدتها إيجار ٣ أشهر سلفاً .

عندما أحضرت حوائجى كانت الشمس قد غربت وأظلم الطريق ، فبدا لى موحشاً ، وبعد ما رتبت ثيابى وحوائجى ، اعتزمت العودة إلى وسط البلد ، فقد كنت تواعدت مع صديقى بتسوتو ، الذى أشهد الله أنه بذل كل ما فى مقدوره لتخفيف آلامى ، وإذا بربة الدار تعترض طريقى . ودار بيننا الحوار الآتى :

— إلى أين ؟ . . أعازم على الخروج ؟.

— نعم . مرتبط بموعد .

— فكرت — بما أن الوقت متأخر — أن أدعوك لتناول العشاء معى !

— شكراً للطفك .

— هل تطول سهرتك ؟

— لا أعرف .

— لا تتأخر عن العاشرة مساء .

— لماذا ؟ السهرة لا تحلو قبل ذلك .

ــ الظلام يكتنف هذا الحى الجديد ، ولم تجهزه البلدية بعد بمصابيح الإنارة ، والشارع غير مرصوف بعد . .

ــ سأهتدى إلى طريقى على كل حال .

ــ هل من عادتك السهر كل ليلة ؟

ــ فى الغالب . وسأقتنى غداً بطارية ضوء صغيرة أستعين بها على الرؤية . .

موسولينى ؟ من يكون هذا ؟

بدا على سيدة الدار شىء من الاضطراب ، وشحب وجهها كأنها أرادت أن تقول لى شيئاً واحتبسته ، وأعطتنى مفتاح الباب الخارجى وهى واجمة .

نزلت إلى الطريق فإذا الظلام الدامس قد خيّم ، وكنت أتعثر فى الحفر الكثيرة . وانتظرت الترام الوحيد الذى ينتهى خطه على بعد مائتى متر ، حوالى نصف ساعة .

المكان مقفر . ولا راكب غيرى فى انتظار الترام ، ترى هل أخطأت فى اختيار السكن فى هذا الحى البعيد غير المسكون ؟

أراد بتسوتو أن يسرى عنى فقال بلهجة ساخرة :

ــ تعرف أنى شيوعى ، غير أنى أذهب إلى (بدروم) جريدة « جورنالى دلبو بولو Giornale del Popolo » لأستمع إلى سخافات موسولينى ، وأتجسس على حركاته!

ــ من يكون هذا الموسولينى ؟

ــ ألم تسمع عنه ؟ إنه صاحب مبدأ الفاشيستية . .

ــ وما الفاشيستية ؟

ــ جماعة مضادة للشيوعية تنشر آراء مخبولة مضحكة . وموسولينى المعتوه ، كان مدرساً ، ثم نفته الحكومة الإيطالية إلى النمسا ، لكنه عاد ليرأس تحرير جريدة

« الجورنالى دلبوبولو » ، ستستلقى على قفاك من الضحك عند سماع محاضرته ، إنه مهرج كبير ، وأنت فى حاجة إلى ما يسرى عنك ، إنه مسرح دخوله بالمجان !

— لا مانع .

على رأسه « كَلَبْك » أسود وحركاته حركات مجنون !

كان يحرس باب الدخول شبان يرتدون زياً موحداً ، وكانت القاعة غاصة بجمهور وفير كله فى مقتبل العمر ، وأخذوا ينشدون الأناشيد ويصخبون ويرددون الشعارات ، وينادون بسقوط الشيوعية . وبدا على وجه بتسوتو الغيظ . وفجأة دوّى المكان بهتاف يصم الآذان ، وظهر رجل ربع القامة ، عريض المنكبين يلبس زياً يميزه عن الآخرين ، وعلى رأسه « كَلَبْك » أسود يتدلى منه زر . وارتفعت الحناجر : « ڤيڤا موسولينى ! ڤيڤا الفاشيسيو » ، ووقف الجميع رافعين إلى أعلى أذرعتهم مبسوطة الأكف على طريقة التحية الرومانية القديمة . وبعدما بادلهم التحية بدأ خطابه الذى كانوا يقاطعونه بالتصفيق الحاد ، وتملكهم الإعجاب به ، وبدا كأنه ساحر أو منوم مغناطيسى سيطر على مشاعرهم وأشعل فى عواطفهم ناراً .

كان موسولينى يأتى بإشارات تثير الضحك ، فيصفع وجهه براحته صفعات متتالية ، ويضم شفتيه ، ويمسك بأذنه ، ويضرب المائدة بقبضته ، ويعلو ويقصر ، ويرفع ذراعيه نحو السماء بطريقة مسرحية . وبدا لى كمجنون فى مستشفى المجاذيب ، وبذلت جهوداً جبارة لأمنع نفسى من القهقهة ، أما صديقى بتسوتو فقد كاد يفضحنا بما يبديه من استخفاف واستهزاء . وحمدت الله أن انتهت المحاضرة الطويلة قبل أن يفطنوا إلى ما يبديه من ازدراء مكشوف فيفتكوا بنا .

فزع فى الشارع المظلم !

اقترح على بتسوتو أن نتم السهرة فى التافرنا ، فرفضت رفضاً باتاً ، لم أنس أنها سببت لى لبس قمصان المجانين بعد تجرع النبيذ المعتق ، وأصابتنى بعقدة ضد تعاطى الكحول لازمتنى حتى اليوم . أخذنا نجوب « جالاريا Galeria »ميلانو الشهيرة التى كانت تغص بالفتيات ، فلم يثر جمالهن ورشاقتهن اهتمامى، برغم تحريض بتسوتو ، وجحوظ عينيه .

عندما نويت العودة إلى مسكنى الجديد عرفت أن الترام ينتهى موعد سيره بعد الحادية عشرة ، مما أجبرنى أن أستأجر تاكسى . ولما وصلت بى السيارة إلى نهاية الخط توقف السائق ، فنبهته أن الفيلا التى أقصدها ما زالت بعيدة .

— لن أتحرك بالسيارة خطوة فى هذا الشارع . عليك أن تبلغ الفيلا على قدميك !

— لماذا ؟

— لا أريد أن أعرض نفسى للخطر .

— أى خطر ؟

— أنت تفهم ما أعنيه . . ادفع لى أجرتى .

الشبح يقول لى : رايح على فين يا بغل !

لم أفهم سبباً لإحجام السائق وعناده . وما إن وصلت إلى منتصف الطريق حتى لاحت أشباح تجلس على الإفريز . تابعت سيرى ، وإذا بى أفاجأ بأحدهم وهو يلبس (كاسكيت) يضع يده على كتفى ، فالتفت مذعوراً .

وجه إلى الشبح حديثاً بالعامية الميلانية ، لغة الرعاع :

– انت جيت ولا الهوى رماك ؟

– ماذا تريد ؟

– رايح على فين يا بغل ؟

– ومالك انت ؟

– انطق . . والا تلقى راسك تحت ، ورجليك فوق . .

سمعت قهقهة من الجالسين . . فتمالكت أعصابى ، وقلت :

– أنا ذاهب إلى مسكنى .

– فى أى خرابة يا ابن الـ . .

غلى دمى ، لكنى ألجمت لسانى ، وقلت :

– فى الفيلا البيضاء .

– إيه ! إلحقوا ياجماعة ! الفار وقع فى المصيدة ! وانت تبقى إيه ؟ دلدول جديد . . ! هى المرة . . لقيت لها حبيب . . دى قد اماك . وبتديلك كام على الشغلة المقندله دى ؟

– أنا استأجرت فى الفيلا غرفة .

ضربنى على قبعتى .

– أرجوك ، أنا غريب عن ميلانو .

دفعنى الرجل فرمانى بجوار أصحابه على الإفريز :

– بيقول غريب . انت من أى داهية ؟

أواصر المعرفة تتوطد بينى وبين العصابة !

لم أجد بدًّا من مجاراتهم وتحمل مزاحهم السمج . وقد فهمت سر الإعلان والأجر الشهرى الزهيد ، وجزع سيدة الدار من قضائى الليلة خارج الفيلا ، ودعوتها لى على

العشاء ، ورفض سائق التاكسى اجتياز الشارع المخيف. ولكى أتجنب أذى العصابة التى فهمت أنها تقطع الطريق ليلا ، فضلت احتمال مزاحهم الثقيل وألفاظهم البذيئة ، ومن محاسن حظى أنى أتقنتها من معاشرة العمال والصناع الذين كانوا زملاء لى فى معهد الأومانيتاريا . ا ر

لم يمض نصف ساعة حتى توطدت بينى وبين هؤلاء الأوباش أواصر المعرفة . وقبل أن أودعهم حذرونى من ذكر اجتماعى بهم فيما لو سألنى عنهم رجال الشرطة .

فوضى الصراع بين الاشتراكية والفاشيستية

وما إن أدرت المفتاح فى قفل الباب حتى هرعت نحوى سيدة الدار مرتجفة :

ـ لماذا تأخرت ؟ هل قابلتهم ؟

ـ نعم .

ـ خشيت أن يصيبوك بأذى .

ـ لقد أصبحت وإياهم أصدقاء .

ـ أصدقاء ؟ !

ـ نعم .

ـ المجرمون القتلة . . أتعرف ماذا ارتكبوا منذ أسبوع ؟

ـ ماذا ؟

ـ سطوا على قصر السنيور جرازيانى الثرى . . إنه على بعد نصف كيلومتر من هنا . وقيدوه وهددوا من فى القصر من خدم ، وقد حاول أحدهم أن يتصل بالتليفون مع مركز الشرطة فحطموا رأسه بقبضة مسدس ! أخذوا كل الجواهر . .

ـ والبوليس ؟ !

— البوليس فى هذا الحى يخافهم ويخشاهم ، رجال الشرطة يغلقون على أنفسهم باب « القره قول » . إننا اليوم فى إيطاليا نعيش فى فوضى الصراع بين (السوشياليزم) و (الفاشيزم) والحكومة لاهية . بل أحياناً تستعين الأحزاب السياسية بأمثال هؤلاء المجرمين الخطرين . . أتوسل إليك ، لا تكثر من الخروج ليلا . . إننى إنما أؤجّر الغرفة للاستئناس برجل يحمينى . أبيت فى رعب ، وأهب من نومى مذعورة لأقل حركة . أخشى الانهيار العصبى .

— أليس لك زوج ؟

— زوجى فقد قبل أن تضع الحرب أوزارها . قالوا : إنه وقع أسيراً فى أيدى النمساويين ، لكن الأسرى الإيطاليين عادوا ، أما هو فلم أعثر له على أثر . لا بد أنهم قتلوه .

ثم خارت قواها ، وانهالت دموعها ، فاحترمت شجنها ، فكلانا « فى الهوى سوى » . .

* * *

برغم كل هذه المغامرات كنت ألتهم دروسى بالمعهد بنهم ، فقد قررت فى نفسى أن أعب من ينبوع الثقافة المسرحية ، وأتزود بما يؤهلنى أن أحصل على دبلوم هذا المعهد فى أقصر وقت ، وكنت كالجائع النهم إلى المعرفة ، واضعاً نصب عينى أن أكفر عن أخطائى وأرد اعتبارى فى نظر والدى وأثبت له أن التمثيل مهنة لها مكانتها واحترامها فى العالم المتمدين .

أما مدرسة الأومانيتاريا فقد أفادتنى كثيراً فى عملى بالمسرح . وكانت خليطاً عجيباً من مختلف الحرف ، والتدريس فيها باللغة العامية (لغة ميلانو) . وكان نقاش العمال مع الأساتذة يثير الضحك ، وتقترن المناقشة دائماً بأقذع الألفاظ ، ولكنى

استفدت منها فى معرفة حرفية الإضاءة المسرحية وإعداد المناظر « الميكانزم » .

بيد أنى لم أواظب فيها على التحصيل أكثر من عامين ، فإن أستاذى كيانتونى كان خلال إجازات المعهد العالى ، يصحبنى فى رحلاته التمثيلية ، ويسند إلىّ بعض الأدوار الثانوية ، وكانت هذه الرحلات تهيئ لى فرصة التزود بالمران والصقل ، وتستغرق كل أشهر الصيف تقريباً .

البدلة الكاملة كان ثمنها ٣ جنيهات !

كانت شركات الإنتاج السينمائى تدفع للكومبارس الذين يملكون ملابس فاخرة كالإسموكن والفراك والبنجور أجراً مضاعفاً . وقد علمت من أحد الزملاء أن هناك ترزياً يقسط أثمان الملابس للفنانين على دفعات شهرية طويلة الأجل. فبادرت بالاتفاق مع هذا الترزى على تفصيل ست بدل دفعة واحدة . وكان الطاقم الرجالى الرسمى لا يزيد ثمنه على ثلثمائة ليرة إيطالية (ما يعادل ثلاثة جنيهات مصرية) والقسط الشهرى مائة ليرة فقط ! واعتمدت فى سداد الدين على ما سأجنيه من عملى السينمائى والمسرحى.

عندما أدركت الخطر الكامن من بقائى فى فيلا السيدة البعيدة عن العمران ، والتى كان الطريق إليها تسيطر عليه عصابة قطاع الطرق كما ذكرت ، قررت العودة إلى سُكنى المدينة .

وليدهش القارئ من سيطرة قطاع الطرق والعصابات فى إيطاليا فى تلك الأزمان ، إذ كانت ميلانو وغيرها من المدن الإيطالية ترزح تحت صراع الأحزاب ، وبخاصة الصراع الذى كان فى أوجه بين الفاشية الجديدة والشيوعية ، مما أدّى إلى انهيار سلطة الأمن واستهتار المتنازعين بالعدالة والقانون إلى حد أن رجال قسم البوليس « القره قول » فى الحى البعيد الذى كانت تقع فيه الفيلا ــ خوفاً من بطش

الخارجين على الأمن – يغلقون أبواب القسم بمصراعيه على أنفسهم ، وترقب الشرطة المختبئة فيه الأحداث من ثقوب فى باب « القره قول » !!

وكنت أخشى أيضاً أن ترتكب تلك العصابة جريمة فى الحى ، فأزج فيها ويصيبنى – أنا البرىء – الاضطهاد والسين والجيم من رجال الأمن . وخفت أيضاً أن الشرطة قد تنتزع منى بعض المعلومات عن أفراد العصابة فأنال من أولئك المجرمين الأذى الشديد .

بعد بحث مضن واطلاع متواصل على الإعلانات فى الصحف ، عثرت أخيراً على سكن خلفى متواضع فى سطح إحدى العمارات بشارع ٢٢ سبتمبر ، فاستأجرته مفروشاً من صاحبه بثلثمائة ليرة شهرياً ، وكان المسكن يحتوى على غرفتين إحداهما تجمع بين صالون الاستقبال وقاعة طعام ، والأخرى للنوم ، ثم مطبخ صغير ملحق به شرفة تطل على أسطح المبانى الأخرى الفقيرة ، إلا أن صاحب الشقة ، وكان رساماً بوهيمياً ، أراد أن يتخيل أن الشرفة حديقة غناء فرسم على حيطانها بستان فرساى بقصره ونافوراته ، ولم تكن الشرفة تزيد فى حجمها على مترين مربعين ، لكن الإيطاليين توارثوا فن الرسم والنقش وتفننوا فيه حتى إذا كان على جدران الأسطح !

كانت أول ليلة أقضيها فى هذا المسكن فى شهر يناير ، ولم أفكر فى وسائل التدفئة الضرورية ، وما إن أويت إلى فراشى ، حتى شعرت بالبرد القارس تحت الألحفة ، وكأننى فى حوض ماء مثلج إلى درجة لم أحتملها ، وبرغم شبابى المتدفق وقوة احتمالى ، وبنائى الجسدى الرياضى ، لم أجد بداً – تحاشياً للصقيع الفظيع – من ارتداء بدلتى ، ثم معطفى تحت الغطاء ، ولكن ذلك كله كان بدون جدوى ، وبدأت أتجمد .

— إلهى ! أيطلع على النهار . وأكون قد فارقت الحياة ! !

يالفقراء الذين نراهم فى زمهرير الشتاء يسيرون شبه عراة فى ثياب مهلهلة ! والأغنياء يركبون السيارات بدون أن يشعروا بالعطف عليهم ومعاونتهم ، صحت فى نفسى : يالظلم الإنسان للإنسان !

هدانى الفكر إلى أن فى غرفة النوم العتيقة مدفأة ، فأين أجد الخشب لأشعله حتى تشع الحرارة فى بدنى ؟

« وجدتها » ! ! كما قال العالم أرشميدس .

أسرعت إلى المطبخ ، وأخذت كرسياً خشبياً ثقيلا ، واستعنت ببعض الجرائد ، فأشعلت النارفى المدفأة ، ولكن سرعان ما تحول الكرسى إلى رماد ، فضحيت بالكرسى الثانى ، ثم مائدة الطعام . . حتى أتيت على كل ما كان بالمطبخ من أثاث خشبى ! ! !

وما إن طلع النهار حتى سارعت إلى مسكن « البوابة » — وفى أوربا كل عمارة لبوابها أو بوابتها مسكن بجوار الباب — وطلبت منها المشورة ، فاندهشت وقالت :

— عليك أن تشترى خشب وقود ! !

— وأين أجده ؟

— عند بائع الخشب ، وهو قريب منا . ويمكنك تخزينه فى مخزنك الخاص . .

— وأين مخزنى ؟

— على سطح المبنى ، فلكل ساكن مخزن صغير ، سأرشدك إليه .

صعدت معها إلى السطح . . وجدت صفوفاً من المخازن ، واجهتها من السلك ، فشكرتها ، وعندما تركتنى ونزلت وجدت على كل مخزن قفل ، وكان فى جيبى بعض المفاتيح الصغيرة ، عالجت بها قفلا ففتح ، وإذا بمعظم هذه الأقفال من السهل

فتحها ، قلت لنفسى : « لا بأس إذاً من أخذ ثلاث أو أربع كتل خشبية من كل مخزن من هذه المخازن لأملأ مخزنى بدون أن يشعروا . وهكذا لست فى حاجة إلى شراء وقود . أليست هذه مبادئ علم الاقتصاد الجماعى المشترك ؟ ! »

اضطررت أيضاً إلى شراء مقعدين خشبيين ومائدة من مخازن الموبيليا «النصف عمر » لأعوض طاقم المطبخ الذى استهلكته . .

وحدث لى أيضاً — حين كنت أسكن هذه العمارة — أن عدت متأخراً ذات ليلة من عملى فى أحد الأفلام ، وبوابات العمارات الضخمة تغلق ليلا ، إلا أن كل بوابة يحوى هيكلها باباً خشبيًّا صغيراً يفتحه الساكن خلال ساعات إغلاق البوابة الكبرى بمفتاح خاص ، وكل ساكن يحمل نسخة منه .

بحثت فى معطفى — وكانت ليلة ممطرة — عن المفتاح الصغير لأدخل العمارة فلم أجده .

اعتقدت أنى فقدته . . ما العمل ؟ إن البواب أو البوابة لا يستجيبون لدق الجرس بعد إغلاق الباب الكبير ، أو بالأحرى يعزلون أسلاك جرس الباب الكبير الخارجى ليتسنى لهم النوم والراحة .

معنى هذا أننى سأبقى تحت المطر المنهمر ، لعل الأقدار ترحمنى وتبعث أحد سكان العمارة ، ولا يحدث هذا إلا فى النادر . والساعة الآن الثانية صباحاً . ولا مفر لى من قضاء الليلة فى فندق ، والفنادق بعيدة ، وطرق المواصلات مقطوعة ، ولا بد من تاكسى ، وكل هذا يستلزم نفقات باهظة بالنسبة لميزانيتى المتواضعة . .

التصقت بحائط العمارة لأتحاشى المطر ، وليست معى « شمسية » ، ومضى نصف ساعة وأصبحت كالفأر « المبلول » ، طرق سمعى غناء ورأيت مخموراً يتقدم مترنحاً ، ظننته من السكان ولكن خاب ظنى ، وها هوذا يمر أمامى . طرأت فى رأسى فكرة . .

واليائس يتعلق بشعرة أمل !

من يدرى ؟ ! ربما أى مفتاح يحمله يفتح الباب الصغير ، ولماذا لا أجرب ؟ فقد ترحمنى المصادفة ؟ أمسكت بذراع الرجل السكران ؛ فنظر إلى مستغرباً ثم صرخ :

— بوليس . . ! !

لا شك أنه ظننى قاطع طريق . . صمت . . ثم قلت له : « سنيور . . لست لصًّا . . أنا أطلب منك فقط خدمة إنسانية ، هل لك أن تقرضنى . . »

أجاب الرجل :

— نقود ؟ إن صاحب الخمارة قد تفضل ونظف جيوبى . .

— لا . . أى مفتاح معك .. ضاع مفتاحى . . أريد أن أجرب مفاتيحك .. فقد يفتح أحدها بابى .

— مفاتيح أبواب العمارات تختلف ، لا بد أنك مخمور مثلى .

— هذا لا يكلفك سوى بضع ثوان .

— عجل فلا أريد أن أوقظ زوجتى ، فتعاقبنى بالضرب لتأخرى ، والمطر كالسيل المنهمر ، وساقاى لا تقويان على حملى .

وبينما أحاول بعجلة إدخال المفتاح فى ثقب الباب ، ولا أكاد أتبين مكانه ، ويداى مبتلتان ، أفلت المفتاح من بين أصابعى ، وشاهدته قد جرفه السيل حتى وقع فى بالوعة ، وصاح الرجل :

— هيا . . إلىّ بالمفتاح . .

فنظرت إليه وقد أغلق علىّ ، وتمتمت بصوت مرتجف ، وحنجرة متقلصة :

— المفتاح ؟

— نعم المفتاح .

— المفتاح وقع فى البالوعة ! !

— ماذا تقول ؟ لعنات السماء والأرض عليك ! !

وانقض علىّ ممسكاً بتلابيبي وفتح « جعارته » وأخذ يقول : « إذن تعال معى يالعين لتنال صفعات زوجتى نيابة عنى ! »

على حين غرة . . لمحت عيناى أحد سكان عمارتى ، وكأنه هبط من السماء ، يفتح الباب الصغير . فدفعت بالسكير فسقط على الأرض .. وصرخت بالرجل الآخر :

— بربك انتظر.. لا تغلق الباب.. واستطعت الدخول خلفه .. وظللت أسمع سباب الرجل المخمور (وأهل ميلانو مشهورون بالسب القاذع) حتى وصلت إلى مسكنى فوق السطح .

كنت أتحايل على الحصول على قوتى الضرورى ، بشتى الوسائل، فإن حصلت على بعض الليرات أشترى شريحة من اللحم ورغيفاً وأقوم بشواء الشريحة بمطبخى ، وإن أعوزتنى المادة ، وكثيراً ما أعوزتنى ، أشترى بليرة واحدة (قرش صاغ) مكسرات عين الجمل للغداء والعشاء . فقد اكتشفت أنها تملأ المعدة و « تنفش » إذا ما شربت عليها كوب ماء .

ذكرت للقارئ أنني ، لأحسّن أجْرى ، لجأت إلى ترزى واتفقت معه على تفصيل عدة بدل بالتقسيط المريح . . لكننى لم تسعفنى أحوالى المالية إلا فى دفع قسط أو اثنين وتغافلت عن بقية الأقساط . ومضت عدة شهور . .

ذات يوم وأنا أتسكع فى « ميدان دومو الكبير Pizza Domo» فى قلب المدينة التقيت وجهاً لوجه مع الترزى، فأمسك بى وصرخ :

— يانصّاب . . أخيراً وقعت يدى عليك . . بحثت عنك فى عنوانك الذى أعطيته لى فلم أجدك ، وحق العذراء لن تفلت من يدى هذه المرة ! !

ــ أنت محق . . ولكننى كنت أود أن أسدد ما علىّ .

ــ تعال إذن إلى الدكان .

سرت معه وأنا لا أدرى بأى حجة أتذرع ، فقد قلت له ما قلت لأتحاشى الفضيحة وسط مئات المارة .

قال لى الترزى : « اصعد معى إلى مسكنى فالدكان مغلق فى هذه الساعة . . والوقت وقت غداء » .

جلست فى قاعة الضيوف ، وقال :

ــ سأحضر لك كمبيالاتك . . .

وبينما أنا فى انتظاره اندفعت إلى القاعة طفلة لا تتجاوز الخمس سنوات ، وكانت أشبه بالعرائس الخشبية التى يلعب بها الأطفال ، زرقاء العينين ، متوردة الخدين . تقدمت نحوى وقالت :

ــ أين بابا ؟

ــ سيأتى حالا . .

ــ من أنت ؟

تقدمت منى فأجلستها على ركبتى أداعبها ، وعاد الأب وهو يقول :

ــ إليك ست كمبيالات بـ ٦٠٠ ليرة . .

نظرتُ إليه وإلى الفتاة ، ولحرج الموقف طفرت الدمعة من عينى . .

اندهش الرجل !

ــ لماذا تبكى ؟

أسعفنى الخيال بفكرة :

ــ عفواً يا سنيور . . إن ابنتك الجميلة شديدة الشبه بابنتى .

ــ ألك ابنة ؟

تصنعت الإجهاش بالبكاء . .

ــ ماذا جرى لك ؟

ــ معذرة . . فقد مضت مدة . . لم أرها . . إنها فى مصر ، تركتها مع أمها .

ــ ألك زوجة ؟

ــ لا . . أستغفرك يا رب . . لسنا زوجين ! !

ــ يا ربّ ! ! إذن فهى ابنة . .

ــ نعم . . وهى مريضة ، وأرسل لها كل ما يتسنى لى جمعه ، هذا هو السبب الحقيقى لتقصيرى فى دفع الأقساط .. ابنتى الحبيبة .. ترى كيف حالها ! إن أمها فقيرة وقد حضرت إلى ميلانو سعياً وراء الرزق مؤملا أن أجمع لها ولأمها ثمن التذكرة فى الباخرة . .

ثم أتممت التمثيلية بلطم خدى !

انهار الترزى وجلس على مقعد ليواسينى .

ــ سوف أتزوجها بمجرد حضورها . . غفرانك يا ربى ! « وهات ياعياط » . .

شاركنى الرجل فى البكاء ، واعتذر لى بحرارة . ولما استأذنت للخروج ، أمسك بذراعى ، وأخرج من جيبه مائتى ليرة إيطالية (٢ جنيه) قائلا : « خذ يا ولدى وأسرع بإرسالها لابنتك . . بربك سامحنى » .

تمنعت . . وتحت إلحاحه ، ودفعه المائتى ليرة بجيب سترتى ، لم أجد بدًّا (إرضاء له !) من أن أقبل المبلغ . وودعنى وأنا أتركه محنى الرأس ، ودعنى قائلا :

ــ لا تهتم ، سوف تدفع لى دينك عندما تتحسن حالتك . أدعو لك بالتوفيق .

إن الكثيرين لا يعرفون طيبة قلب الإيطالى ، وسهولة التأثير عليه ؛ لقد عشت

بينهم ٥ سنوات ، ولم يخب ظنى فى طيبتهم أبداً .

وبعدما مضت السنون ، وعدت ، وأنا فى أوجى ، لزيارة ميلانو ، كان هدفى الأول وجل قصدى سداد الدين لهذا الإنسان الطيب .

بحثت عنه كثيراً ، لقد ترك دكانه ، لكننى فعلت المستحيل حتى أرشدنى البعض إلى دكانه المتواضع فى أحد الأزقة المتفرعة من شارع سان بيترو ، ووجدته قد شاخ وضعف نظره ، فلم يتعرف على . سألته :

— لماذا تركت محلك الفخم ؟

— لقد عصف بى الزمن ، وهاجمنى المرض والشيخوخة . ولم يوف الكثيرون من زبائنى ، ومعظمهم من الفنانين ، ديونهم لى .

— أنا أحدهم . . وفى رقبتى دين لك . . ها هو ذا مضاعفاً . . أنا رمسيس . .

بهت الرجل وتمتم :

— أصدقت الآن أن تدهورى كان من معاملة أمثالك ؟ ولكنك شذذت عن القاعدة . .

— وأين ابنتك الجميلة ؟

— فى المدرسة . .

دسست فى يده مبلغاً آخر وقلت :

— اشتر لها بهذا المبلغ ثوباً لعيد الميلاد . .

برقية من باريس . .

تسلمت برقية من شقيقى عباس وهبى ، خريج كلية السنترال الهندسية فى باريس يدعونى فيها لقضاء بضعة أيام معه . وبعث لى بتذكرة السفر بالقطار (أورينتال

اكسبريس) بواسطة مكتب للسياحة. ففرحت فرحاً عظيماً لأن هذه الدعوة ستتيح لى فرصة زيارة مدينة النور لأول مرة .

ركبت فى عربة النوم بقطار الليل ، وسررت لعدم وجود مسافر آخر يشاطرنى الغرفة التى تحوى سريرين .

ولكن اغتباطى لم يدم طويلا ، فقد فوجئت فى المحطة التالية بدخول مسافر لا يقل وزنه عن مائة وعشرين كيلو ، وهو يحمل حقيبة سوداء ضخمة .

وحيانى ثم سألنى :

— أين فراشك ؟

أشرت إلى السرير السفلى ، فزمجر وقال محتجاً ساخراً :

— ما أغبى شركات السياحة ! .. أمن المعقول أن أصعد بجثتى الضخمة إلى السرير العلوى ؟ ! إننى لست مسئولا إذا ما تحطم من ثقلى وسقطت فوقك .

أجبته :

— إذا شئت استبدلنا مكانينا ، ولا مانع عندى من النوم فى السرير العلوى .

فشكرنى ، ثم عرض على مصاحبته إلى عربة الطعام إذا كانت لى رغبة فى تناول العشاء .

تجاذبنا أطراف الحديث خلال الأكل . وعرفت منه أنه صاحب مصنع أحذية فى بلدة « مونزا » يتعامل مع متجر كبير للأحذية فى العاصمة الفرنسية .

وعدنا إلى عربة النوم. وظللت خارج الكابينة لأمكنه من ارتداء البيجامة ، فالمكان ضيق لا يكاد يسعه بمفرده !

وفتح الباب بعد أن استعد للنوم ، فخلعت بدورى ثيابى ، وارتديت ملابس النوم ، وصعدت بخفة إلى فراشى العلوى .

أما التاجر فقد أغلق الباب بالسلسلة النحاسية . . وبدأت أتسلى بفتح إحدى المجلات ، وسمعت شخيره المزعج فقلت فى نفسى : « لن يغمض لى جفن ، فأنا لا أحتمل الشخير » ، لكننى بعد وقت قصير وعلى ضجيج عجلات القطار السريع غلبنى النعاس . .

صحوت على دقات قوية وسمعت صوتاً يقول :

ـ جمرك الحدود .

كان رفيق غرفتى يتابع شخيره، وقد تمكنت بحركة بهلوانية، بدون أن أنزل من سريرى، أن أرفع سلسلة الباب ، وما إن انفتح حتى دوّى صوت طلق نارى مكتوم ، ثم حدث هرج وضغط عنيف من فرامل عجلات القطار كادت تسقطنى من سريرى .

وحدثت ضجة عالية وطلقات نارية كثيرة . فأضأت النور ونزلت من فراشى مذعوراً . . وإذا بى أرى . . ياالهول ما رأيت ! ! دماء تغطى وجه زميلى تاجر الأحذية وصحت : « النجدة . . النجدة ! »

تجمهر المسافرون على باب « الكابينه » وشاهدوا ما شاهدت . علا الصراخ ، وجاء « فراش » العربة ثم رجلا الشرطة ، ودوت « الصفافير » وانهالت الأسئلة علىّ ، وأمرت بارتداء ثيابى ، وأنزلونى من القطار ، وبدأ التحقيق معى على ضوء البطاريات الكهربائية ، وأنا لا أعرف بماذا أجيب ، حتّى وصلت سيارة إسعاف تتبعها أخرى ملأى بالجند .

وخلال حساب الملكين معى عرفت ما حدث . .

إن الذى طرق الباب منتحلا شخصية موظف الجمرك هو أحد أفراد عصابة رهيبة كانت تتبع تاجر الأحذية . وقد ذكرت للمحققين أن القتيل كان يتأبط محفظة

جلدية ضخمة ، وأنه كان حريصاً عليها ، فقد حملها معه خلال العشاء . واستنتج رجال الشرطة أن اللصوص حققوا هدفهم وهو سرقة الحقيبة التي كانت تحوى ولا شك مبلغاً ضخماً من الليرات الإيطالية ، وأنهم شدوا جرس الخطر لإيهام سائق القطار أن هناك حادثاً أو حريقاً ، مما يلزمه على الوقوف توًّا بالقاطرة ، فكل القطارات فى أوربا مزودة بجهاز إنذار .

وبصعوبة كبيرة سمحوا لى بمواصلة السفر بالقطار الذى توقف ثلاث ساعات بعد أن اطلعوا على جواز سفرى وهويّتى وعنوان إقامتى بميلانو . . والعنوان الذى أقصده فى باريس . وصحبنى أحد رجال الشرطة حتى فندق شقيقى عباس للتحرى .

وهكذا أدركت أن العناية الإلهية هى التى أنقذتنى ، وتخيلت ماذا كان يحدث لو أننى لم أبادل تاجر الأحذية فراشه .

كنت ولا شك سأفتح باب غرفة النوم عندما دقّ اللصوص الباب ، وعندما يروننى أمامهم وجهاً لوجه وهم فى عجلة لسرقة الحقيبة ، يعجلون بالتخلص منى ولن يترددوا فى إطلاق الرصاص علىّ وقتلى . وهكذا يلعب القدر دوره الغامض فى المصاير .

وصدق المثل العامى : « إدينى عمر . . وارمينى البحر » .

مكثت مع شقيقى عباس ثلاثة أيام مبهوراً بروعة وجمال عاصمة الفنون ، وعرفت منه أنه افتتح مكتباً كبيراً بالقاهرة ، وأنه تعاقد مع شركات أوربية كثيرة لاستيراد سيارات المارسيدس والمحاريث الزراعية وغيرها .

ولما أبديت له دهشتى لمعرفته عنوانى بميلانو . . أنا الذى قطعت صلتى بالأسرة ولم أراسل أحداً . . ابتسم وأخبرنى أنه التقى بوالد مختار عثمان عمدة ساحل سليم ، ولعلمه بصداقتى بابنه رجاه أن يسأل مختار عن مقرى بإيطاليا لأنه شديد القلق على . أما

والدتى فهى فى حالة سيئة من الحزن والأسى لانقطاع أخبارى ، وتخشى أن أكون قد أصبت بسوء ، فانتزع والد مختار عنوانى من ولده بعد أن وعده بأن يسمح له باللحاق بى لإتمام دراسته فى إيطاليا .

ثم سلمنى شقيقى خطاباً من أبى وكان مملوءاً بالحنان الأبوى ، والوعد بالصفح عنى إذا نفذت رغبته وسافرت إلى ألمانيا لدراسة الطب ! !

— لكن يا عباس سأحصل على دبلوم التمثيل العالى بعد سنة، ولكى أثبت لك أنى جاد فى الدراسة أحضرت لك ما يثبت تفوقى على جميع الطلبة .

— يايوسف تمثيل إيه ؟ دول مش لاقيين ياكلوا فى مصر . . وأبوك وعدنى أن يحط باسمك ألفين وخمسميت جنيه فى البنك . . . وقاللى : « زى ما صرفت على تعليمكم حصرف عليه . . دا ابنى مهما كان » . . واستطرد أخى يقول : « إسمع . فيه دفعة طلبة مصريين حوالى ١٥٠ حيوصلوا بعد أسبوع على الباخرة اسبيريا لميناء تريستا وياخدوا القطر لبرلين ، وحيكون معاهم فى المركب صديقه صادق باشا وهبة عضو الوفد . . ولازم تروح تنتظره فى تريستا ، وحيعطيك كل مصاريف السفر وجواب لموظف كبير فى فرع بنك " حسن سعيد " ببرلين ، وهو حيتولى إعداد كل ما يلزم لتدرس اللغة الألمانية ثم تلتحق بكلية الطب. وحيكون بمثابة ولى أمرك . . اسمع الكلام يايوسف . . أنا خايف لابوك يغضب عليك ويحرمك من الميراث » .

أدركت أنه من الصعب المناقشة . . فتظاهرت بالقبول .

قضيت ثلاثة أيام فى مدينة النور ، وبهرت بباريس ومعالمها وشوارعها ومبانيها . . وعدت إلى ميلانو مبلبل الفكر ، وفى النهاية قررت أن أسافر إلى تريستا وأقابل الباشا صديق أبى وأرجوه أن يقنع أبى ببقائى فى إيطاليا وعدم رغبتى فى دراسة الطب .

وفى تريستا وصل صادق باشا فقابلنى بوجه بشوش ، لكنه أخبرنى أن أبى لن

يتراجع عن إصراره ، وكان متعجلا لأنه سيلحق بالقطار المسافر إلى باريس بعد ساعة ونصحنى بالإذعان لرغبة أبى . .

جلست فى مطعم لأتناول الغداء ، وقد أيقنت أن أبى لن يغفر لى ، وكانت الجرسونة فتاة لعوباً يزين أذنها قرط كبير ، وكانت فارعة القامة ، وفى ابتسامتها إغراء صارخ . . وكان المطعم قد بدأ يخلو من زبائنه . . واستدرجتنى إلى الحديث الذى انتهى بموعد فى المساء .

معى كما ذكرت تذكرة السفر إلى ألمانيا ، وغير محدد موعد استعمالها ، فلتبق معى حتى أمنح نفسى مهلة للتفكير . . أما موعد الفتاة فلن يفوتنى . . وقد قضيت سهرة لذيذة كانت الفتاة دليلا لى ومرشداً ، فشاهدت تريستا فى الليل .

بعد عودتى إلى ميلانو فوجئت بمنشتات (عناوين) كبيرة فى الصحف تصف كارثة سقوط القطار المسافر من تريستا إلى برلين من فوق جسر بين جبلين وعليه ١٥٠ طالباً مصريًّا !

ومرة أخرى أحاطتنى عناية القدر ، وأدركت ماذا سيحل بأمى عند نشر هذه الفاجعة فى صحف مصر ، فسارعت بإرسال برقية عاجلة إلى أبى لأطمئنه وأخبره أننى لم أكن بين الضحايا ، لأن فكرة الانتقال إلى ألمانيا لم ترق لى . وفى اليوم التالى تسلمت هذه البرقية :

« ابق فى إيطاليا والحمد لله على نجاتك » « رفيق الصبا مختار عثمان »

مع المافيا ثانية

فى اليوم التالى ، وكان يوم أحد ، قصدت ، لأتغذى ، مطعماً صغيراً خلف « الجاليريا » . . وبينما أنا أتناول طعامى تقدم نحوى شاب أنيق جدًّا وبدأنى بالتحية :

— ألا تعرفنى ؟

– لست أذكر ياسنيور . .

– لكنني ما زلت أذكرك . ألست السنيور الذي كان يسكن فى فيلا السيدة « ريجالدى » فى حى . .

قاطعته :

– نعم . .

– فهمت أنا ورفاقى أنك تركت سكن الفيلا منذ مدة !

ولما بدا الاستغراب على وجهى قال :

– أنا أحد أفراد الشلة التى التقت بك ذات ليلة . . ألا تذكر ؟

– عفواً . . كان الظلام حالكاً .

– اسمى موناروMonaro ، لقد افتقدناك . كنا قد أجمعنا على أنك شخص ظريف .

– شكراً يا سنيور مونارو . .

– لقد تركت الشلة الحى بعد أن علمنا أن الشرطة أزمعت إلقاء القبض علينا . . ما رأيك . . رجائى الحار أن تتقبل دعوتى لقضاء السهرة فى كازينو « لونا » مع الشلة . .

بدا على الارتباك والخوف ، فطمأننى الشاب الجميل مونارو فقبلت . . تركته وسرت أتسكع لأقتل الوقت فى بواكى « الجاليريا » . . وبينما أنا أتسلى بمشاهدة بعض الفترينات ، التقيت وجهاً لوجه بشخص لم يدر بخلدى مطلقاً أننى سألتقى به فى ميلانو .

– مختار ! ! مختار عثمان ؟

– يوسف !

– مختار . . مش معقول . . أنا باحلم ! !

— مسير الحي يتلاقى . أنا دخت عليك يابو حجاج . رحت أدوّر عليك فى عنوانك القديم اللى كنت كتبتولى فى آخر جواب لك مالقتكش .

تعانقنا وتبادلت قبلات الشوق مع رفيق الصبا وزميل الهواية والشقاوة .

— وجيت ازاى ؟ !

— دى حكاية طويلة . . أبويا لما زهق منى ، واحتار فى أمرى قاللى خد . . آدى ١٠٠ جنيه وروح دوّر على حبيبك يوسف فى إيطاليا .

جلسنا فى أحد المقاهى . .

— حدثنى أولا ياميركو . . ميركو تصغير اسم مختار . . وهكذا ينطقونه به فى إيطاليا . أنا مسمى روحى رمسيس . . قوللى قبله . . وصلت إمتى ؟

— من يومين .

— كليوبى . . إزّىْ كليوبى ؟

— بتسألنى يايوسف عن كليوبى ؟ حقيق الطيب مالوش بخت فى الدنيا دى .

— اتجوزت حبيبها اليونانى ؟

— اتجوزته إيه . . دى سابته .

— سابته ؟

— بعد ما ماتت أمها .

— أمها ماتت ؟

— تعيش انت . بعدما ضحت بحبها وقلبها علشان تنقذ أمها ، ما نجحش العلاج ولا الأشعة .

— وبتعمل إيه دلوقت ؟

— القرشين اللى فضلوها من الفلوس اللى ادهملها خطيبها فتحت بيهم دكان

خردوات فى التوفيقية . .

ــ وعرفت إنك جاى ميلانو ؟!

ــ أنا رحت زرتها فى الدكان وقلتلها إنى جاى . . قالتلى والدموع فى عينيها: السلام أمانة . . سلم لى على يوسف وبوسولى !

ــ يا مختار ربنا بس هو اللى خلانى أتماسك وما ينهدش كيانى . .

ــ مسكينة هى كمان .. قالت لى من مصلحة يوسف إنه حصل كده ، لأنى كنت حاكون حمل ثقيل عليه فى أوربا .. دا كتاب وانخلعت صفحاته . مصر بقت وحشة قوى بعد ما سافرت ماطقتش أقعد فيها .

ــ والمدرسة ؟

ــ سقطت سنتين ورا بعض فى البكالوريا . .

ضحكت . .

ــ وناوى تتعلم التمثيل هنا ؟ دنا فاضل لى سنة على الدبلوم . . دامعهد مهول .

ــ استنى قبله لما اتعلم الطليانى وآكل الاسباجتى . .

كان لقاء سعيداً انشرح له قلبى .

ــ اسمع .. الليلة فيه واحد عازمنى .. وهو لطيف قوى اسمه مونارو .. حرامى وقطاع طريق .

ــ يا خبر اسود !

قدمت مختار لمونارو وشلته فى كازينو « لونا » . .

كان هذا الكازينو عبارة عن « صالة » فسيحة يتبارى فيها رماة النيشان وهو أشبه بملعب (البيلوت باسك Pelote Bask) الذى كان فى شارع الألفى بالقاهرة ، لا يقل طوله عن المائة متر .

والمتبارون محترفو رماية برصاص بندقية خاصة يتناوبون التصويب على هدف . والهدف عبارة عن (طارة) نحاسية مستديرة قطرها نحو المتر . وهذه الطارة مقسمة إلى ٢٥ رقماً تدور حول مركزها بمحرك كهربائى .

وعندما تبدأ المباراة والدائرة تدور فى دورتها يطلق الرماة الرصاص وأعلى نمرة هى الرابحة .

والمتراهنون من الجمهور يجلسون على مائدة خضراء كموائد الروليت مقسمة بعدد الرماة ، وعددهم ستة عشر . والمقامرون يضعون (الفيش) على المربع الخاص للرامى الذى يختارونه . والذى أدهشنى أن اثنين من الشلة (شلة قطاع الطرق) كانوا من الرماة .

وبعدما انتهت السهرة وانصرف الناس رجوت مونارو أن يهيئ لى وسيلة لأجرب التصويب على النمر . ولما علمت منه أن الرامى يتقاضى مائة ليرة فى الليلة ، جال بخاطرى أن أنضم إلى الرماة المحترفين . وفى ظرف أسبوعين من التدريب المتواصل — وبمساعدة الشلة التى عرفت أن لهم سيطرة كبيرة على رجال الإدارة بالكازينو — أصبحت واحداً منهم أقبض كل ليلة مائة ليرة بالتمام والكمال .

ألحقت مختار ، بمساعدة صديقنا الشيوعى بتسوتو ، وبنفس حيلة شهادة الفقر المزيفة ، بمعهد الأومانيتاريا الذى كان فيه قسم ثقافى لمحو الأمية .

كنت أترك مختار خلال النهار لأواصل التحصيل فى المعهد ، ونجتمع كل ليلة فى كازينو « لونا » .

التقيت ذات ليلة بفتاة كانوا يسمونها « روشا الحمراء » وكنت قد تعرفت عليها كزميلة تعمل معى ككومبارس فى مسرح « لاسكالا » وهو أعظم دار للأوبرا فى العالم .

لم يكن اسمي مدرجاً ضمن المتبارين فى تلك الليلة التى خصصها الكازينو لأبطال أوربا من المحترفين . واكتفيت بالمقامرة مع الجماهير التى اكتظت بها الموائد الخضراء مما اضطرنا إلى الوقوف مع الواقفين .

دخلت فى تلك الليلة فى دائرة برج (التيس) . . أى أننى كنت مصاباً بنحس (دكر) عنيد . . قامرت حتى خسرت كل ما معى وكل ما كان فى جيوب مختار . وقد كدت أهوى من طولى . وعندما هممنا بالخروج التقينا بروشا الحمراء ، وعرفت ما أصابنا ، ولكى تعبر عن شعورها نحوى أعطتنى فيشة من ذات العشر ليرات وقالت :

— جرب بالفيشة دى .

ووقفت معنا وكان العرق يتصبب من جبينى . . وبماذا تنفعنا هذه الفيشة الضئيلة القيمة ؟ لكن حقاً إن المقامر لايتردد أن يغامر بثمن تذكرة أتوبيس .

وقفت خلف رجل ضخم الجثة سعيد الحظ كنت قد لاحظت أنه يربح باستمرار . قذفت الفيشة ذات العشر ليرات اعتباطاً فوق مائدة النمر فوقفت على نمرة ٤ أما الرجل الضخم السعيد فقد اختار نمرة ٣ التى ما لبثت أن ربحت خمس عشرة مرة بحسب القاعدة . ووضع (الجرومبيه) أى الموظف المختص بصرف الفيش للرابح خمسة عشر ضعفاً على نمرة ٣ وإذا بالرجل يتركها كلها على نمرة ٣ .

تبادلنا النظر أنا ومختار معجبين بجرأة الرجل .

مرة ثانية ربح الرامى نمرة ٣ وعلا الفيش فوق النمرة . ثم ربحت النمرة نفسها مرة ثالثة ثم رابعة وإذا بالرجل الضخم الجالس أمامى يصيح فى وجهى :

— يالك من مقامر جبار ! . . أما كفاك أن تربح نمرتك أربع مرات متواصلة

ويتضاعف ربحك . . إنها ألوف . . اسحبها . . كفاك جشعاً . . قد تخسره كله فى المرة الخامسة ! !

واشترك معه الحضور فى إقناعى على طريقة الإيطاليين ، وهى التدخل فيما لا يعنيهم . تملكتنى الدهشة والذهول ، فالنمرة الرابحة نمرته هو وليست نمرتى . وأوشكت أن ألفت نظره إلى أن هناك خطأ وأن المال ماله والربح له .

وإذا بالشقراء تغمزنى بحركة خفية من خلفى . وتطوع الرجل الضخم فوضع الفيش فى جيوبى وبين يدى وكانت من كثرتها تتساقط من يدى ، واشترك معه المقامرون . . والشقراء تعاوننى فى جمع الفيشات ، وآخرون كانوا يبعدوننى دفعاً عن المائدة ، وقد احتقن وجه مختار ، وسحبتنا الشقراء إلى الكيس (شباك صرف الفيشات) ، وقبضت ما يزيد على الأربعين ألف ليرة ، وهى ثروة بالنسبة لى ، وهرولنا خارج الكازينو ، واحتفلنا ليلتها بشرب الشمبانيا ومنحت الشقراء ألف ليرة . . !

تم الجزء الأول

(ويليه الجزء الثانى)

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ١٩٧٣/٢٤٥٤
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣

هذه المذكرات . . .

قرأ العالم فى الأعوام الأخيرة مذكرات عملاق السينما العالمية « تشارلى تشابلن » ، ومذكرات عملاق الفن الغنائى والاستعراضى « موريس شيفالييه » . . وفى كل عام تصدر فى العالم عشرات الكتب التى تتناول المذكرات الشخصية أو « السيرة الذاتية » لعظماء العالم فى كل مجال من مجالات التفوق والامتياز .

ويسر « دار المعارف » أن تقدم لقراء العربية اليوم هذا الجزء الأول من مذكرات عملاق المسرح المصرى وفنان الشعب « يوسف وهبى » ، إيماناً منها بأن حياة كل شخصية عامة إنما هى من قبيل « الملكية العامة » للجماهير العريضة ، بمعنى أن من حق الجماهير على الرواد البارزين فى كافة المجالات أن تنتفع بخبراتهم وتجاربهم ، وتتعظ بالدروس التى تعلموها من الحياة والأيام . . .

وفى الشهور القادمة تصدر تباعاً الأجزاء الأخرى من هذه المذكرات ، أو « الاعترافات » ، التى توخى فيها فناننا الكبير « يوسف وهبى » الصراحة التامة ، التى هى من سمات الثقة بالنفس !

